عدد خاص

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة العاشرة • العددان ١١٧ ـ ١١٨ • تموز (يوليو) ـ آب (أغسطس) ١٩٨٨ • الموافق ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٤٠٨هـ

ثورة الحجارة

تاريخ العرب والعالم

العددان ١١٧ ــ ١١٨ ● تموز ــ آب ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهرين

صاحبها ورئيس تحريرها . فاروق البربير

المستشار . د. أنيس صايغ المدير المسؤول . محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث . شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات علي عبدالساتر

الانتاج مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل	سوريا	٢٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	٦. دينار
الاردن	٨٠٠ فلس	الإمارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي: للافراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
BIMONTHLY PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 14, No. 117 / 118 • July - August 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

شهادات من الخارج



ثورة الحجارة...
ملحمة جديدة في تاريخ العرب الحديث

فاروق البربير

إذا كانت الأمة العربية أصيبت بنكسة أمام قوى خارجية ضخمة تسترت وراء إسرائيل، وهذا لا يقلل من قوة إسرائيل الذاتية، إلا أن شعوباً كثيرة غيرنا تعرضت لنكسات وهزائم أشد خطورة ولكنها سرعان ما ضمدت جراحها واسترجعت قواها المادية والبشرية والمعنوية وسارت مرة أخرى في طريق الوحدة والقوة والكرامة.

فالمعارك العسكرية بالمعنى الفني الدقيق ليست إلا جزءاً أو ناحية من كفاح الشعوب من أجل الحرية. وقد تخسر الشعوب معركة عسكوية أو أكثر أحياناً ولكنها في نهاية الأمر تكسب الحرب الشاملة ضد الاستعمار بشتى صوره، ومختلف أشكاله السافر منها والمستتر. ذلك أنها حرب تتعدد فيها الأسلحة وبعضها كثيراً ما يكون أشد مضاء وأقوى مفعولاً في الأجل الطويل..

والعرب لا ينقصهم كثرة الأسلحة التي يملكونها، أكانت عسكرية أم اقتصادية أم بشرية أم جغرافية.. ولعل أمضى هذه الأسلحة وأخطرها هو سلاح الوحدة والإيمان، وبالتالي النضال الجاد. لغد عربي أفضل..

وثورة الشعب الفلسطيني في الأراضي العربية المحتلة ما هي إلا الدليل الساطع والحي على إيمان وتصميم هذه الأمة على النضال لاسترجاع الأرض التي سلبت بالخداع والقهر والقوة..

إن حق الشعب العربي باسترجاع أرضه وحريته وحلمه، هو ملازم، لاسترجاع إنسانيته التي فقدها، عام ١٩٤٨، والتي بدونها لا يستطيع أن يحيا..

إن الثورات من أجل الحرية، سواء كانت ثورات تحرر الشعوب من نير حكم المطلق أو تحرر الأمم من حكم الاستعمار الأجنبي، لا يصح أن يبنى الحكم في أمرها على مخاوف الخائفين مما تتقاضاه الثورات التحررية من الجهود وما تتكلفه من التضحيات فالحرية لا تتجزأ: فأما حرية مع وحدة وكرامة وعزة، وأما خضوع واستسلام للقدر الذي لا يساوم ولا يرحم.

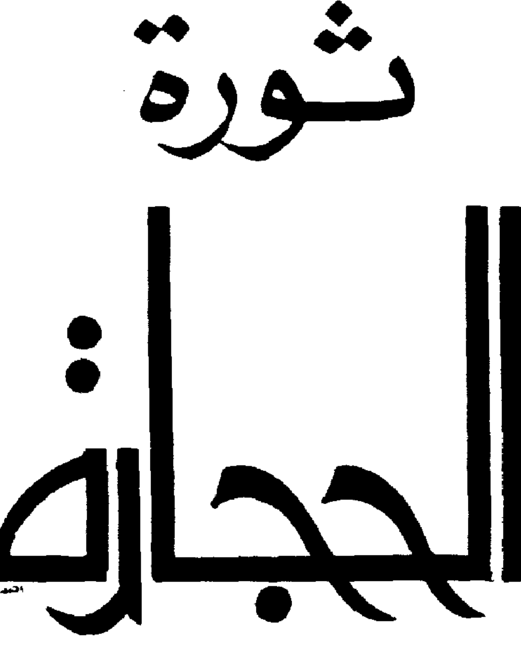
ومما يؤسف له أن الثورة المستمرة منذ أكثر من عشرة أشهر في الأراضي العربية المحتلة تستحوذ على انتباه وقلوب الملايين من أحرار العالم ولكننا لا نلمس أو نجد أن هناك اهتماماً ودعماً حقيقياً من الملايين العربية المنتشرة من الخليج العربي إلى المحيط. ونخطىء خطأ كبيراً إذا ظننا بأن هذه الثورة هي ثورة فلسطينية بمعناها الإقليمي.. فهي ثورة عربية في منطلقها ومسارها وأهدافها وأحلامها..

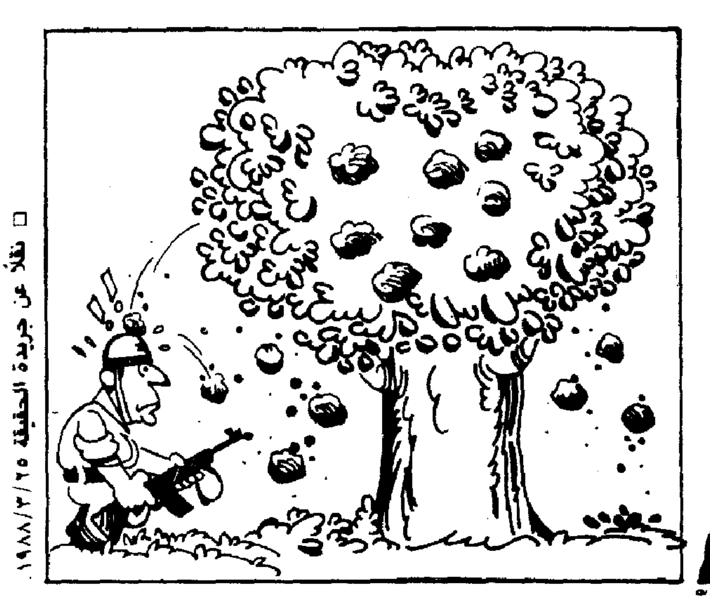
هي ثورة ضد الاستعمار الإسرائيلي، الذي حرق وهدم ثم احتل الأرض ثم شرد وقتل الأحرار ثم جال بنظره إلى «خارج» فلسطين فاحتل سيناء والجولان وجنوب لبنان، ولم يتورع من احتلال عاصمتين عربيتين هما: القدس عام ١٩٦٧ وبيروت عام ١٩٨٢!..

إن محو الاستعمار لا يمكن أن يعبر عبوراً دون أن يلاحظه أحد كما يقول «فرانز فانون»، لأنه يتناول الوجود، لأنه يغير الوجود تغييراً أساسياً. إن المناضل الفلسطيني في الأراضي العربية المحتلة يتحول رويداً رويداً من مواطن عادي إلى مناضل حقيقي يدخل التاريخ من بابه الواسع ويحمل إلى الوجود لغة خاصة وإنسانية جديدة. إن النضال ضد الاستعمار الإسرائيلي هو خالق رجال جدد حقاً.

إن هذا العدد الخاص من مجلة «تاريخ العرب والعالم» هو عطاء متواضع للمناضلين والمناضلات في الأراضي العربية المحتلة الذين يسطرون فصلاً جديداً رائعاً من نضال العرب الحديث.







□ نقلا عن جريدة الحقيقة ٢٥/٣/١٩٨٨.

المطران جورج خضر

أطفال فلسطين كالموسيقى لغة يفهما كل البشر. خطاب إلى الله، بلوري مثله، قوي مثله لأن القلب البريء من الزيف يقول الله أمام الجبابرة الطفولة الواحدة في العالم طريّة كالندى، مطهرة كالنار. هي بدء سابق للفكر، متقنة كالقلب، محكمة كالوتر وعت القدس نفسها مثل وعي العذراء بتوليتها وكما أدرك ضياء الكون أنه ليس إلى إنقضاء.

الحق لا يحتاج إلى شرح. في الشرح بعض من شك. هذا كفاح طالع من الفجر أنه من طبيعة الصدق، من وثبة الشهادة، من طهرها وأبديتها. لذلك أسلم له العالم واستعاد به بكارته. في التوراة قصته. فيها أن رجال إسرائيل «اصطفوا لمحاربة الفلسطينيين ووقف الفلسطينيون على جبل من ههنا ووقف إسرائيل على جبل من هناك وبينهم الوادي. فخرج رجل مبارز من عسكر الفلسطينيين إسمه جليات.. فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لماذا تخرجون للاصطفاف في الحرب... اختاروا رجلاً ينازلني. فسمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطيني هذا فارتاعوا وخافوا جداً. تصدى له داود الفتى الصغير ورفض داود حمل الدرع والسيف ولكنه أخذ عصاه وانتقى خمسة حجارة ملس من الوادي ووضعها في الجراب ومقلاعه بيده وأخذ داود حجراً من الجراب وقذف بالمقلاع... «وظفر داود بالفلسطيني بالمقلاع والحجر».

وانقلبت الأدوار. إسرائيل منذ نشوئه يستضعف أهل الأرض. يصبح هو جليات الجبار. داود الصغير أضحى اليوم أي ولد في الضفة وفي غزة يجسر بمقلاع وبغير مقلاع أن يقول لا للظلم كل هؤلاء الصبية ما ذاقوا بلدهم القديم. ولدوا «في تشريد الحرية» في ذكرى وطن محذوف.

الشيء الدائم في الوطن أنه مكنون لا يلغيه في القلوب الفتح والو قهر الفتح ترابه. إن للتراب عندنا قدسية ولكن إن صارت الأرض وما عليها من تاريخ بعضاً من كياني فهي باقية ما بقيت. الذين يعيشون على رقعة واحدة إذا تدخلوا فما من إمكان استئصال تاريخهم إذا جعلت منه رؤيتي إلى أين أخرج منه؟ فلسطين لم تطرح من قلوب أبنائها يحلمون بها كما يحلم الجائع بالرغيف. يأتي العبان سياسى ليقول أن هذا سراب، إن ثمة تاريخاً أصدق وأصل. توحي سارة إلى إبراهيم عن هاجر: «أطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق» (تكوين ٢١:١٠). فمضت وتاهت وكان إسماعيل «ينمو رامي قوس» ابنه في الضفة وغزة ينمو رامي حجر لأن خطيئة اسحق هي إياها أن ينفي أخاه إلى الصحراء، إلى صحراء الخلو من الكرامة.

أنا أفهم حنين اليهود إلى فلسطين. إنهم يحسبون أن لهم معها روابط لا تنفك ولكن كيف لا يفهمون أن أهل فلسطين لهم أيضاً في نفوسهم معراجاً إليها؟ في آخر المطاف يتبين أن التلازم الذي تقيمه الايديولوجية الصهيونية بين هذه الأرض وشعب اليهود دون سواه يصطدم بالواقع الفلسطيني الإنساني. إن ضراوة النظرية تقود إلى إبادة الأجساد الفلسطينية. إن تفريغ الأراضي المقدسة من الشعب العربي أمر تفرضه النظرية إذا ذهب بها دعاتها إلى آخر المنطق. وهذا مسجل في تاريخهم منذ البدء. إن الممارسات الحالية لفي خط مستقيم مع هذا الذي ورد عند أول فاتح عبري لفلسطين عنيت به يشوع بن نون لما قال لذويه عن خمسة ملوك كنعانيين: «ضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك. فتقدموا ووضعوا أرجلهم على أعناقهم» (يشوع ١٠:٢٤). هذا يوافق سياسة الأرض المحروقة وإبادة الناس، تلك السياسة التي نادت بها التوراة في فتح أريحا تقول: «فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب» (٦:١٧) أي مبيداً إبادة كاملة. كذلك الجندي العبري الذي لا ينفذ هذه السياسة فهو وبنوه وبناته وكل ما يملك فينطبق عليه القول «رجمه إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة» (٧:٢٥).

يشوع بن نون فتح كنعان بإسم الله، أدولف هتلر آمن على طريقته بهذا الإله لأنه أخذ من كلام أشعياء النبي كلمته «معنا هو الله» وحفرها على منطقة (زنار) كل جندي وبدا للألمان آنذاك أن الله نفسه يبيح لهم البلدان التي احتلوها. إنهم حسبوا أنهم بإسم الله يقتلون اليهود ويقتلون الغجر وأن الإله نفسه يريدهم أن يفنوا كل هذه الأقوام. أفظع مجزرة في تاريخ الناس تلك التي ارتكبها النازي في حق اليهود. النازية هي أن ترفض الآخر لمجرد أنه آخر وأن تمحو ذكره من الأرض. ذلك أنك بنيت نظرية في وحدة الأمة وسلامتها وكل ما يجرح هذه الوحدة يجب أن يزول.

الموت، موت الآخرين، شرط لتثبيت وحدة قرارنا نحن قوامها وعناصرها. أما إذا دل الواقع على أن هذه الوحدة المصبوبة نظرياً لا تلائم الساحة فلتخرب الساحة لتبقى الأيديولوجية. إنه لمن المحزن جداً ألا يكون اليهود قد أفادوا من خبرتهم المريرة لألمانيا النازية ولم يسعوا إلى ديموقراطية حق. لقد وضعوا غير كتاب عن أوشفيتز حيث عُذبوا وأحرقوا وجعلوها مصدراً لكل فلسفة جديداً وقالوا إن اللاهوت أي أرقى تأمل إنساني لا يسع الإنسانية أن تقيمه اليوم كما كانت تقيمه قبل أوشفيتز. أنا أتعاطف وهذا تعاطفاً كبيراً. ولكن لماذا تصبح الضحية جلاداً والمقهور قاهراً؟ لقد أعطى اليهود للإنسانية المتحضرة درساً لن تنساه وستفكر هذه باللعنة التي حلت بالبشرية المسيحية الأوروبية لما عصت مثلما عصت وتشوهت كما تشوهت. إن اليهود في عصر هتلر كانوا مسيح الرب. بدماء لهم زكية خرجوا من بابل تلك وتمجدوا في عيني الرب وما قصرت يده عن غذائهم. لكنه في ما بعد أيقظ لهم الصباح وقد فهمنا معهم ألا «نخاف من إنسان يموت ومن ابن الإنسان الذي يجعل كالعشب». انتفضوا من التراب وجلسوا وكعبد الله الذي ترنم به أشعياء تعالو وارتقوا وتساموا جداً لأنه لم تبق لهم صورة ولا جمال «وحمل الرب أوجاعهم كما حمل أوجاع ماسيا لأنهم سيقوا، أمة، إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها لم يفتحوا أفواههم» (أشعياء ٥٣).

فتية فلسطين ونساؤها اليوم يساقون إلى الذبح لأنهم شهدوا. أهكذا ضعف إسرائيل أنه يخشى الحصى؟ الحجارة لا تقتل. إنها تشهد. الدعوة الصهيونية تقول عن اليهود النازحين إلى فلسطين أنهم شعب بلا أرض يجيئون إلى أرض بلا شعب: إن كان هذا هو الحق فكيف ينبت هؤلاء الأحداث؟ يطلعون من قلب النهار وإسرائيل لا يريد أن يرى حتى يصح فيهم قول نبي لهم: «غلظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه وأغمض عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى» (اشعياء ٦: ٩ ، ١٠). كنا نعذر الناس في استقرائهم تاريخهم فمن السهل أن يكذبوا. ولكن هل تكذب الحادثة؟ كيف لا نقرأ طراوة العظام إذا جاء الجندي وكسرها؟ درساً في العظام بليغاً هكذا أرادوه. «إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس»؟ (لوقا ٢٣: ٢١). الإيمان يقاوم الدروع. انتفاضة حادة في قناعتها، ليس كالوداعة، متمردة كالصوان. اليهود شعب يتقن البكاء وأنتج أجمل أدب المراثي في العالم. يتباكون ويستبكون ويلفتون الناس إلى كونهم أضاحي أبدية. الذين توجعوا بهذا القدر المذهل كيف يحطمون أعضاء البشر؟ كيف ينفذون الأمر العسكري بالتعذيب وهم يعدون مجرمي حرب ليس فقط الضباط الفاشيين ولكن الأنفار الذين نفذوا الأوامر؟ هذا الشعب الذي قال أنبياؤه في العدل ما لم يقله ثائر، كيف لا يرى أن صراخ الشعب الفلسطيني يصعد هو أيضاً إلى إله الرحمة والرأفات الذي يعبده اليهود؟ إن كانت الحرية خيراً وحقاً للناس فهي أيضاً لهذا الشعب العربي الذي صار، بالقمع الذي يذوقه، مسيح العالم.

(«النهار» ١٢ آذار ١٩٨٨)

هذه الانتفاضة الفلسطينية المباركة

السفير د. حليم أبوعز الدين



منذ ان اعلنت بريطانيا في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧، في كتاب وجّهه وزير خارجيتها في ذلك الحين، اللورد بلفور، إلى رئيس الهيئة اليهودية الصهيونية البريطانية، من قبل ان تحتل بريطانيا فلسطين، منذ ذلك الحين وحتى اليوم، لم تخل الأرض الفلسطينية من ثورة او وثبة او تحرك او اضراب أو اضطراب أو حرب تخاض في سبيل الدفاع عن الحق العربي الفلسطيني وعن الأرض العربية الفلسطينية أو عن ما تبّقى منها.

والواقع ان تاريخ فلسطين، منذ سبعون عاماً، هو تاريخ ثائر متحرك متوثب ديناميكي لم يهدأ البتة، وإذا هادن فترة فلكي يتمكن الشعب الفلسطيني من إعادة استجماع قواه واعدادها لخوض حركة جديدة، أو حرب جديدة.

وهذا قدر فلسطين وشعب فلسطين وارض فلسطين، فأرضها مقدسة ترنو إليها الابصار وتلاحقها الخواطر والافكار وتكّرمها اديان توحيدية متعددة. وقدر شعب فلسطين ان يدفع من ارواح ابنائه وراحتهم، من آلامهم وتضحياتهم، من شدائدهم ومآسيهم، ثمن قداسة ارضهم.

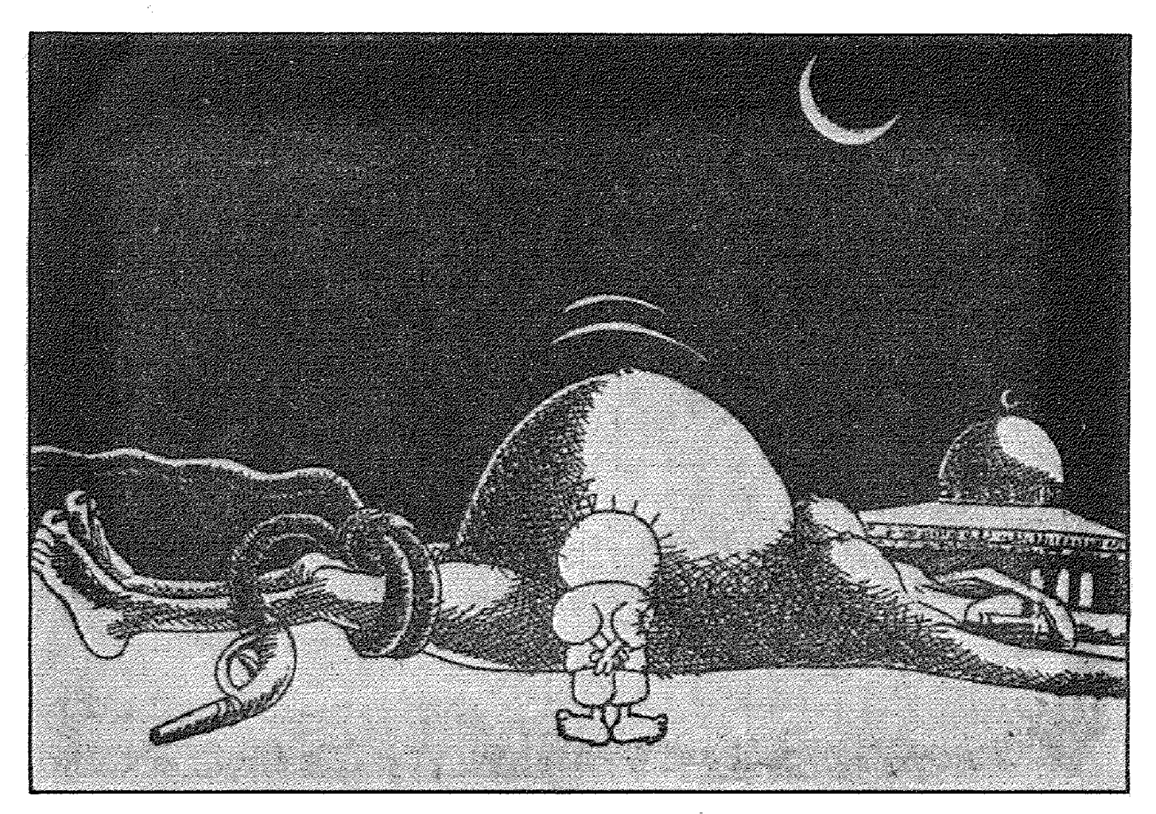
وتكاثفت على شعب فلسطين قوى خارجية متعددة، قوى استعمارية وقوى صليبية وقوى دينية، تضافرت كلها عليه وعملت على السيطرة على مقدساته واستطاعت ان تهجّر اكثره من دياره وان تقيم على ارضه دولة غريبة تجمع إلى مثالب الاستعمار بغض التعصب الديني وعدوان العنصرية الحاقدة. ولم يركن الفلسطينيون، ووراءهم اخوانهم العرب، إلى الاستسلام للقهر، ولم يرضوا بالهوان. فرفضوا الواقع الاليم وقاوموه وجالدوه.

وإذا كان تاريخ القضية الفلسطينية تحت الانتداب البريطاني بين عامي ١٩١٧ و١٩٤٨، هو تاريخ الحركات والاضطرابات والثورات، فإن تاريخ القضية الفلسطينية، منذ العام ١٩٤٨، أي منذ قيام اسرائيل، هو تاريخ الحروب والويلات والهزائم والتهجير.

ولكن الفلسطينيين والعرب، وبرغم هذه المآسي المتسلسلة، لم يستسلموا للضيم ولم يقبلوا الهوان. تعرضّوا للقهر ولكنهم لم يقبلوه، ومنوا بالهزائم ولكنهم لم يرتضوا بها. وخسروا الأرض والمال، وتعرضوا للمهانة ولكنهم ما استهانوا وواجهوا الذل ولكنهم لم يذلّوا.

واستمر تاريخ فلسطين بعد العام ١٩٤٨، كما كان قبله، بل واشدّ تاريخ الحروب والرفض والالآم. وعاشت القضية الفلسطينية طيلة السنوات بين مدّ وجزر وحرب ولا حرب وقتال وتهادن.

ولم يغفل العرب، بجانب هذا الصراع الدائم العمل السياسي والنضال الديبلوماسي من اجل مساندة قضيتهم الكبرى. طرحوا قضيتهم امام العالم، طرحوها في الامم المتحدة وفي مجلس الامن، طرحوها أمام سائر المنظمات الدولية وامام المؤتمرات وأمام الهيئات ذات الطابع الأممي، طرحوها أمام اللقاءات الاقليمية والعالمية



□ بريشة ناجي العلي.

والمتخصصة، طرحوها أمام مؤتمر «باندونـغ» والمؤتمرات الاسيوية الافريقية، أمام مؤتمرات القارات الثلاث، امام مؤتمر عدم الانحياز، امام المؤتمر الإسلامي، أمام المجموعة الاشتراكية، أمام المجموعة الأوروبية الغربية وغيرها. وحل بند «قضية فلسطين» بنداً دائماً على جدول أعمال الجمعيات العامة للأمم المتحدة وأمـام دورات مجلس الأمن. واستصدر العرب مجموعات من القرارات الدولية لتأييد قضيتهم في فلسطين، لا تقع تحت تعداد ولا حصر.

ولكـــــن،

ولكن هذه القرارات بقيت كلّها حبراً على ورق. بقيت قرارات نظرية، لم تتمكن الأمم المتحدة، ولم يتمكن مجلس الأمن، ولم تتمكن المـؤتمـرات الاقليمية والدولية من وضعها موضع التنفيذ. وتأكدّ للعرب ان قضية فلسطين لا يمكن أن تحلّ إلاّ على ارض فلسطين.

فالعرب خسروا فلسطين في حروبهم على أرض فلسطين، واليهود ربحوا اسرائيل في حروبهم على أرض فلسطين، وما خسره العرب بانفسهم لا يمكن ان يعيده العالم إليهم، والرئيس الخالد جمال عبد الناصر قال: «ما خسره العرب بالقوة لا يسترد بغير القوة». وعمل الرئيس العربي السوري المناضل الفريق حافـظ الأسد عـلى استكمال التـوازن الاستراتيجي مـع اسرائيل من اجل الاعـداد لاعادة الاعتبار واستعادة الأرض.

وفي وسط هذا الخضّم من الاحداث ، ومنها ما هو ايجابي ، ومنها ما هو سلبي ــ كمعاهدة كامب دافيد بين مصر واسرائيل ــ وكذلك الخلافات العربية ــ العربية، والفلسطينية ــ الفلسطينية، في وسط هذه الأوضاع التي تتراوح بين المدّ والجزر، بين الأمل والقنوط، بين الرجاء واليأس، انبثق، فجأة، في ٨ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٨٧م، نور حركة شعبية شمولية قام بها شعب فلسطين يجمع فئاته في وجه الاحتلال العسكري الاسرائيلـي.

وسطـع نور هذه الحركة داخل فلسطين وامتدّ شعاعه إلى الخارج فحرّك النفوس واحيا الآمال. وحار العرب في وصف هذه الحركة: أهي ثورة ، أم اضراب، أو اضطراب؟ أهي ثورة أم فورة؟ أهي

ثابتة أم انية؟ أهي ومضة لامعة لا تلبث ان تخبو، أم هي شعلة دائمة؟ أهي مدروسة ومخطط لها، أم هي مرتجلة ومبتسرة؟ كل هذه الخواطر جالت في افكار العرب، وغير العرب، ولبث العرب وغيرهم ينظرون وينتظرون ، وإذا بها تشتعل وتمتد وتمضي قدماً وتتسع، وإذا بها تشمل الجميع.

إذن هي حركة شعبية جماهيرية لا يمكن ان تكون مرتجلة وكيفية. ومع الايام تأكد ان هذه الحركة المباركة تجاوزت مرحلة العودة او ردّة الفعل. واثبتت انها «انتفاضة» شعبية جماهيرية عارمة اختلط فيها الجميع وامتزج في ثناياها الجميع، واكدّت انها صحوة قومية طال انتظارها. وظهر منها انها بداية حركة تصحيحية في مسيرة النضال العربي الفلسطيني. وراهنت على انها نقلة نوعية جديدة وواعية في مجال العمل القومي العربي.

واشرأبّت إليها الأفكار وتعلقت بها الآمال ونظر إليها العرب على أنها حركة تصحيحية في مسيرة النضال العربي الفلسطيني.

حركة قامت على الدرس والتخطيط والتنظيم، قامت على صهر جميع الفئات الفلسطينية في بوتقة شعبية واحدة، حركة ازالت الطبقية والقومية والتحتية، وجمعت بين كبار الملاكين والاثرياء والمتوسطي الحال والعمال والطلاب في جمهرة واحدة عاملة. حركة اظهرت انّ الشعب هو القائد وان الجماهير هي الفاعلة.

حركة برهنت على اختمار الوعي القومي وعلى حسن انتهاج السبيل العلمي التنظيمي في العمل الوطني. حركة بلغ من جماهيريتها وانتشارها انها عبرت حدود القدس والضفة الغربية وقطاع غزة، إلى سائر اراضي فلسطين العام ١٩٤٨، إلى حيفا ويافا والجليل وعكا وصفد وطبريا. حركة اقضّت مضجع الاسرائيليين، خاصة عندما تجاوزت حدود العام ١٩٦٧ إلى العام ١٩٤٨.

هذه الانتفاضة التي تلقفها العرب واهتزّ لها العالم واهتم بها كما لم يهتم لأية قضية عربية من قبل. هذه الانتفاضة التي دخلت قواميس لغات العالم بلفظها العربي وتبنّتها سائر اللغات الاجنبية. فاصبحنا نسمع لفظة «الانتفاضة» باللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والاسبانية وأيضاً بالروسية.

هذه الانتفاضة الفلسطينية اثبتت ان الجماهير توازي، ان لم تتقدم ، على قياداتها، وان الشعب الفلسطيني قد استوعب عبر الماضي واستفاد منها، من العمل السليم ومن الاخطاء، واضاف إليها خبرة الواقع الأليم، الواقع الذي يطهّر الانفس ويشحذ الهمم.

الانتفاضة اظهرت ان العمل السلبي الجماهيري يتجاوز العمل النظامي العسكري وانّ ما خسره العرب أمام اسرائيل في الحرب النظامية، هم قادرون على التعويض عنه بالحرب الشعبية الجماهيرية غير النظامية، حرب الكرّ والفرّ، حرب الاستنزاف التي تقلق اسرائيل وتخيفها اكثر من الحرب النظامية التي اعدّت لها اسرائيل كلّ عدّتها.

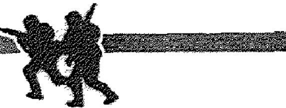
الانتفاضة اثبتت، من حصيلة تجارب اربعين سنة من الرفض والنضال، أنّ العمل من الداخل من داخل الأراضي المحتلة، هو أفعل من العمل في الخارج أو من الخارج. وإنّ العمل الخارجي هو مساند للعمل الداخلي.

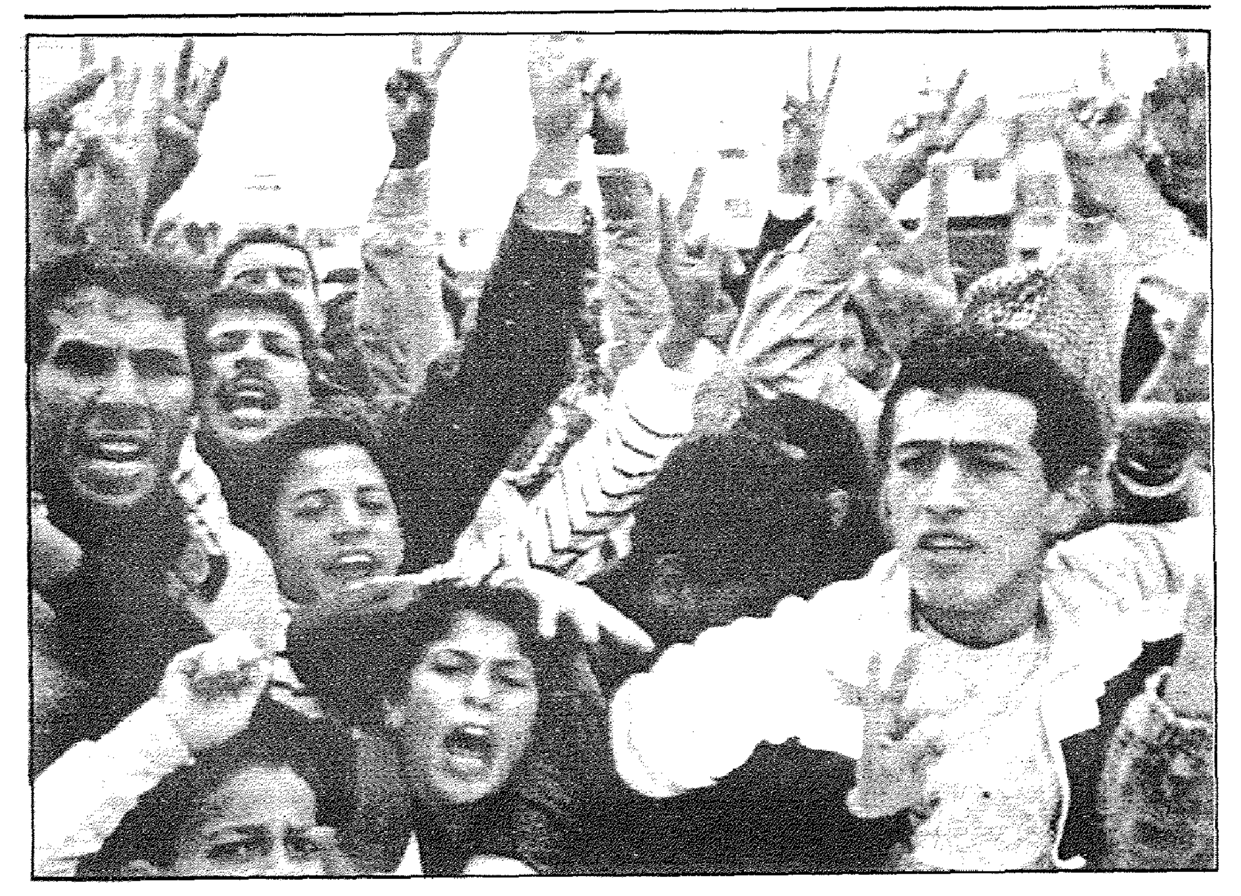
الانتفاضة اثبتت انّه لابدّ منها، للتحريك والإثارة والاستنزاف، لحين التوصل إلى تحقيق التوازن الاستراتيجي . الانتفاضة جاءت تطرح القضية الفلسطينية باسلوب جديد ومن زاوية جديدة اثارت انتباه العالم وأهتمامه. والانتفاضة ازالت الصبغة الروتينية التي كانت قد آلت إليها قضية فلسطين بعد سنوات طوال من تكرار بحثها على المنابر الدولية. والانتفاضة فتحت الباب من جديد أمام مشاركة الفلسطينيين في تقرير مصيرهم وعدّلت من مواقف بعض الدول المناهضة لهذا الحق الفلسطيني.

الانتفاضة هي العمل العربي الفلسطيني الجاد، الفاعل، الذي يجب ان يستمر إلى النهاية ، وحتى تقرير المصير.

ضحايا الانتفاضة غالية، ودماء ابطال الانتفاضة غالية، ولكن الارض غالية، والكرامة غالية. ومهما غلا الثمن فهو رخيص أمام القضية ، أمام الأرض، وأمام الكرامة. هذه الانتفاضة الفلسطينية المباركة يجب ان تستمر حتى النهاية، حتى النصر.







نضال الشّعب الفلسْطيني مِن خلال ثوراته في عهْد الانتداب (١٩٢٠ ـ ١٩٤٨)

العميد الركن د. ياسين سوَيد

تاريخ العرب والعالم ــ ٧



منذ ان بدأت الحركة الصهيونية تبذل مساعيها الناشطة لتحقيق حلمها بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، في أواخر القرن المنصرم، بدأ الشعب الفلسطيني يتحسس الاخطار المحدقة به ويسعى جاهداً لتعطيل مساعي تلك الحركة ووضع حدّ لاطماعها، وذلك باشكال مختلفة من النضال تارة سرّية وطوراً علنية، وإن لم يكتب لهذا النضال ان ينجح في منع الصهيونية من تحقيق اهدافها، فذلك لان الاستعمار، بكل اشكاله، قد تآمر على الأرض والشعب في فلسطين، فانتزع الأرض من اهلها والقاطنين فيها وقدّمها لقمة سائغة للدخلاء اليهود، وشرّد الشعب الفلسطيني، وهو لا يزال يرفض، منذ اربعة عقود، حق هذا الشعب في العودة إلى ارضه وتقرير مصيرة وتكوين دولة مستقلة له على تراب وطنه.

ما ان وضعت الحرب (العالمية الأولى) اوزارها، حتى تبيّن للعرب مدى الخداع والتضليل الذي مارسه حلفاؤهم البريطانيون والفرنسيون تجاههم، وهم الذين ثاروا على الحكم العثماني، وانضموا إلى صفوف الحلفاء في الحرب، آملين ان يساعدهم هؤلاء الحلفاء على إقامة كيانهم القومي المستقل على امتداد الأرض العربية، إلا أنّ هؤلاء الحلفاء عمدوا إلى احتلال الوطن العربي باسم «الاستعمار» الصريح تارة، وباسم «الانتداب» وهو استعمار مضمر، تارة اخرى، بل واكثر من ذلك جزّؤوه إلى كيانات ضعيفة هشّة، ثم عمدت بريطانيا إلى اعطاء ما لا تملك (ارض فلسطين) إلى من لا يستحق (اليهود) وفقاً لما سمّي «بوعد بلفور».

وهكذا بدأ العرب عامة، والشعب الفلسطيني خاصة، نضالهم الشاق الطويل ضد التحدي الصهيوني الاستعماري الجديد.

لقد سبق لعرب فلسطين ان تنبّهوا للخطر الصهيوني قبل فترة الانتداب البريطاني، إذ بدأت هجرة اليهود إلى فلسطين تتزايد، وبدأت نشاط الحركة الصهيونية المتمثلة بالمؤتمر الصهيوني العالمي يتصاعد، مما أثار مخاوف الفلسطينيين، فبدأوا يسعون لمنع موجات الهجرة اليهودية او يعملون على الحدّ منها بمختلف الوسائل[1] خاصة وأن هذه الهجرة كانت تتخذ طابعاً استيطانياً واضحاً، وما أن نشر وعد بلفور (في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧) ثم اعلنت بريطانيا انتدابها على فلسطين (عام ١٩٢٠) حتى أصبح الفلسطينيون وجهاً لوجه امام الحقيقة الدامغة: عزم بريطانيا على تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

ولم يأل الفلسطينيون جهداً في مقاومة الحركة الاستيطانية اليهودية، فعقدت لهذا الغرض المؤتمرات (المؤتمر العربي الفلسطيني في القدس ـــ بدءاً من المؤتمر الاول عام ١٩١٩ وحتى المؤتمر السابع عام ١٩٢٨ ـــ ومؤتمر التسليح في نابلس عام ١٩٣١ ـــ ومؤتمر الشباب العربي الفلسطيني الأول في يافا عام ١٩٣٢ ـــ والثاني في حيفا عام ١٩٣٥)، وأصبح هذا الهم الوطني والقومي هو الشغل الشاغل لجميع المؤسسات الفكرية والجمعيات والمنتديات والاحزاب السياسية، كما انتشرت حركات التمرد على الانتداب وكثرت المنازعات المسلحة بين الفلسطينيين واليهود، وتعددت الاضرابات والانتفاضات والثورات. ونتوقف عند اهم تلك الثورات وابرزها وهي:

١ ـــ ثورة البراق.
٢ ـــ ثورة القسام.
٣ ـــ الثورة الفلسطينية الكبرى.

١ ـــ ثورة البراق (١٩٢٩)

البراق، وهو المعروف عند اليهود «بحائط المبكى»، هو المكان الذي أسرى إليه النبي (صلعم) ووفقاً للآية الكريمة «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير ـــ الإسراء:١»، ويعتقد المسلمون أن النبي (صلعم) أسرى من المسجد الحرام في مكة المكرّمة إلى المسجد الأقصى في القدس على متن براق[2] حطّ به في ذلك المكان الذي اضحى مقدساً عند المسلمين، وقد ثبتت ملكية المسلمين له بموجب صكوك ووثائق رسمية وشرعية[3]، وقد ادّعى اليهود ملكية هذا الحائط باعتبار انه قد قامت، في المكان نفسه، هياكل يهودية في ازمنة متعاقبة، وانّ البنى التحتية لهذه الهياكل تقع في اساس الحائط المذكور.

بدأ النزاع القائم بين المسلمين واليهود على ملكية «البراق» أو «حائط المبكى» باعمال أخذ اليهود يقومون بها للتدليل على ملكيتهم لهذا الحائط

كالتكثيف من زيارته والصلاة عنده ووضع المقاعد والطاولات امامه وكذلك «الكراسي والمصابيح والحصر وتابوت العهد وكتب التوراة» كما اقاموا امامه حاجزاً يفصل بين الرجال والنساء[٤] مما جعل المسلمين يتنبّهون لنوايا اليهود فيعمدون إلى مجابهة هذه الأعمال ومحاولة منعها، ولم يعدم اليهود الوسائل الاعلامية الدعاوية اللازمة لنشر مزاعمهم في ملكية هذا الحائط على العالم. وبدأ النزاع يتخذ طابع العنف في أواخر ايلول /سبتمبر ١٩٢٨ مما دفع بالحكومة المنتدبة، في تشرين الثاني / نوفمبر، من العام نفسه، إلى اصدار «كتاب ابيض» يؤكد حق المسلمين بملكية هذا الحائط وحق اليهود بزيارته، إلّا ان ذلك لم ينه النزاع، فعقدت المؤتمرات الصهيونية بهدف الضغط على بريطانيا كي تتراجع عن كتابعها الابيض، وعقدت المؤتمرات الاسلامية ردّا على المؤتمرات الصهيونية، ودفعاً للمحاولات اليهودية[٥]. وازداد الصراع عنفاً، فتوالت التظاهرات من كلا الفريقين، ولكن الذي اجّجه تظاهرة قام بها اليهود أمام الحائط انشدوا خلالها «الهاتفكا» وهو النشيد القومي اليهودي، ورفعوا العلم الصهيوني، فوقعت بين الفريقين اشتباكات دموية ظلت تتصاعد حتى أدّت إلى صدام مسلح (هو ما عرف تاريخياً بثورة البراق) انفجر في القدس بعد صلاة الجمعة في ٢٣ آب ١٩٢٩ واستمر اسبوعاً كاملاً ولم يتوقف إلّا بعد تدخل سلطات الانتداب البريطاني التي وقفت إلى جانب اليهود مستعملة ، ضد العرب، مختلف انواع الاسلحة بما فيها «الطائرات الحربية للارهاب»، نتج عن هذا الصدام «عشرات القتلى والجرحى من الجانبين»[٦].

٢ ـــ ثورة القسّام (١٩٣٢ ـــ ١٩٣٥)

الشيخ عز الدين القسّام سوري من جبلة، ولد عام ١٨٧١[٧]، ونشأ وترعرع في رحاب العلم والدين والوطنية. درس في مصر على الشيخ محمد عبده، ثم عاد منها إلى سورية ليعمل مدرساً في مسجد البلدة نفسها، ولمّا نشبت الثورة ضد الاحتلال الفرنسي للساحل السوري عام ١٩١٨، كان واحداً من الأوائل الذين لبّوا نداءها، فشارك فيها إلى جانب الشيخ صالح العلي (في جبال العلويين)، ثم لجأ إلى حيفا عام ١٩٢٢ بعد أن حكم عليه الفرنسيون بالاعدام، فاقام فيها، حيث عرف بانه «واعظ ديني ومرشد ورئيس لجمعية الشبان المسلمين في المدينة»[٨] إلّا انه في الحقيقة كان أكثر من ذلك بكثير، كان داعية ثورة ومؤسس عصبة من المجاهدين عرفت، بعد استشهاده عام ١٩٣٥، باسم «عصبة القسّاميين»[٩].

وقد مرت ثورة القسّام بثلاث مراحل:

المرحلة الاولى: مرحلة الاعداد للثورة: وهي تلك التي كان القسّام فيها واعظاً دينياً في الظاهر، إلّا انه كان، في الواقع، مؤسس خلايا جهادية شعارها «هذا جهاد، نصر أو استشهاد»[١٠] وقد انضم إليه كثير من المؤمنين تحت هذا الشعار، وغالبيتهم من العمال والفلاحين والطبقات الكادحة، وكانت عصبة القسّام «السرّية» هذه تتجهز بالسلاح من اموال تجمعها من دخل افرادها وتبرعاتهم وتبرعات المخلصين للقضية ، وقد قامت بين القسّام والحاج امين الحسيني، قائد الحركة الوطنية في فلسطين يومذاك، علاقة مباشرة استمرت حتى استشهاده عام ١٩٣٥، إلّا أن احداً من المؤرخين، وخاصة معاصري الحاج أمين والقسّام، لم يحدّد، بالتأكيد، هوية هذه العلاقة بالضبط ، فرأى بعضهم انها علاقة واعظ برئيس ديني، ورأى آخرون إنها علاقة مجاهد بقائد وطني[١١].

وكان القسّام يشكل خلاياه على طريقة الحلقات، كل حلقة من خمسة افراد على الاكثر، بينهم مسؤول عن توجيههم وتثقيفهم وادارتهم وقيادتهم، وقد تألفت عصبة من خمس وحدات: الاولى لشراء السلاح، والثانية للتدريب العسكري، والثالثة للاستخبارات ومراقبة تحركات اليهود والانكليز، والرابعة للدعوة إلى الجهاد في المساجد والمجتمعات، والخامسة للاتصالات السياسية[١٢]. وكانت القيادة جماعية « تتألف من اثني عشر عضواً» و «لم تكن للقسّام وحده»[١٣]. وقد اختلف في عديد هذه العصبة ، فمنهم من بالغ وذكر انها مؤلفة من «المئات العديدة» ، ومنهم من قال انها من «مايتي إلى ثلاثماية مجاهد لا اكثر»[١٤].

المرحلة الثانية: مرحلة العمل السرّي: لا يمكن تحديد تاريخ بدء هذه المرحلة بالضبط، خاصة

وأنها اتسمت بالسرية التامة والمطلقة، فهي كانت عبارة عن أعمال «التصدي لدوريات الجيش (البريطاني) والشرطة والاصطدام بها، وقطع طرق المواصلات والاغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية وزرع الالغام والمتفجرات فيها»[15] بالإضافة إلى «ملاحقة وتأديب الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية، أو التجسس لحساب المخابرات البريطانية، او بيع الأراضي من اليهود او السمسرة عليها لحساب الاعداء»[16]. ولم تكن العصبة تعلن مسؤوليتها عن تلك الأعمال.

إلّا ان ما يمكن تحديده، بالضبط، هو العملية التي قامت بها تلك العصبة ضد مستعمرة «نحلال» اليهودية في كانون الاول / ديسمبر عام ١٩٣٢، حيث القيت قذائف يدوية على تلك المستعمرة فقتلت رجلًا (يوسف اليعقوبي) وابنه (داود)[17]، وكانت هذه العملية واحدة من سلسلة عمليات سابقة، إلّا ان هذه كانت أهمها.

وتبعت عملية «نحلال» عمليات اخرى اشد من سابقاتها، مما جعل سلطات الانتداب تحوم بشكوكها حول القسّام نفسه، فقرر عندها الخروج بنضاله إلى العلن.

المرحلة الثالثة: مرحلة الجهاد العلني: في الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٣٥، وفي الذكرى الثامنة عشرة لصدور وعد بلفور، خرج عز الدين القسّام وبعض افراد عصبته إلى احراش «يعبد» بمنطقة جنين، حيث اعلن الثورة على الحكم البريطاني في فلسطين، وتحركت قوات الامن البريطاني لمطاردة الشيخ المناضل وعصبته، وكان دليلها في تعقبها للشيخ القسّام ضابط أمن عربي يدعى «احمد نايف»فقادهم إلى مكمن القسّاميين الذين خاضوا ضد القوات البريطانية معركة عنيفة وغير متكافئة استمرت ساعتين واستشهد على أثرها الشيخ القسّام ونخبة ابرار من عصبته امثال المجاهدين يوسف عبد الله الزيباوي وسعيد عطية المصري، وكان ذلك في ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٥، وقد خرج الآلاف من العرب والفلسطينيين في وداع القادة الثلاثة الشهداء الذين لفّت نعوشهم بالاعلام العربية[18]. ودفن القسّام في قرية «الشيخ» احدى قرى فلسطين التي استشهد دفاعاً عن عروبتها[19]. أمّا الضابط الخائن «أحمد نايف» فلم يلبث ان لقي جزاءه بان اغتيل على يد «القسّاميين» انفسهم «في مدينة حيفا، وفي وضح النهار»[20].

لم يكن القسّام عظيماً وجليلًا في حياته كما أمسى بعد استشهاده، فقد عرف العرب عموماً، والفلسطينيون خصوصاً، سرّه المجيد، فاكبروه وعظّموه حتى القداسة[21] واستمرت عصبته، بعد استشهاده، تعمل في الخط نفسه الذي رسمه لها قائدها الشهيد، حيث عادت إلى «السرّية» فنفذت سلسلة من الاغتيالات لعدد من «الخونة والجواسيس»، وكانت لا تقرر اغتيال احد إلّا بعد صدور فتوى شرعية بهذا الشأن، فاغتالت عدداً من المسؤولين البريطانيين الذين لاحقوا العصبة وقضوا على عدد من افرادها، وممن اغتالتهم: المستر اندروز (حاكم الجليل)، وحليم بسطه (مصري عميل كان يعمل مساعداً لقائد الشرطة البريطانية في حيفا)، كما اغتالت العديد «من الخارجين على الثورة وعلى المبادىء الوطنية» من الفلسطينيين[22].

٣ ــ الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩)

مرّت الثورة الفلسطينية الكبرى بمرحلتين:

ــ **المرحلة الاولى**: الاضراب العام.

ــ **المرحلة الثانية**: الثورة المسلحة

المرحلة الاولى: الاضراب العام (٢٠ نيسان / ابريل ـ ١٢ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٣٦):

سبق الاضراب العام اضطرابات في طول البلاد وعرضها بسبب تكثيف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد صعّدت «عصبة القسّام» من نشاطها السرّي في تلك الفترة التي سبقت الاضطراب، فهاجمت في ١٥ نيسان / ابريل ١٩٣٦ قافلة من السيارات (بالقرب من قرية عنبتا في قضاء نابلس) حيث قتلت يهوديين كانا من ركابها وجرحت آخر، الأمر الذي أثار اليهود فقتلوا، في اليوم التالي، ١٦ نيسان، عربيين (بالقرب من جسر العوجا)، وبدأت الأمور تتفاقم ممّا دعا المندوب السامي البريطاني إلى اعلان الطوارىء وتطبيق نظام منع التجول في كل من يافا وتل أبيب اعتباراً من مساء ١٩ نيسان، فكان الرد العربي في يافا إضراباً شاملًا واشتباكات

مسلحة بين اليهود والعرب[٢٣].

وتداعت المدن العربية الفلسطينية لتأييد يافا في اضرابها، وكانت نابلس أولها، وهكذا بدأت الحركة الثورية تتكون من رحم الاحداث المتعاقبة والمتفاقمة، فشكّلت «حركة وطنية» اتخذت من نابلس مقراً لقيادتها، واذاعت هذه الحركة اول بيان لها، في اليوم نفسه (١٩ نيسان)، حيث دعت إلى:

ــ وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ــ تأليف «لجنة قومية في نابلس» و «لجان قومية» في سائر انحاء البلاد، وأخرى احتياطية لمتابعة اهداف الحركة، والاتصال بسائر المدن والقرى العربية في فلسطين لتأليف هذه اللجان.

ــ تنظيم اعمال الجباية والانفاق على العمل الوطني.

ــ اعلان الاضراب العام والشامل في مختلف انحاء البلاد حتى تحقيق الهدف الرئيسي وهو «وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين»[٢٤].

وتجاوبت فلسطين كلّها مع هذا النداء، وبدأ الاضراب العام والشامل، وباشر الأهلون في كلّ مدينة بتأليف «اللجان القومية» لمتابعة العمل الوطني وأهم ما فيه استمرار الأضراب حتى تنفيذ المطالب. وتّم في خلال الايام الاولى من الأضراب (٢٦ نيسان) تشكيل «لجنة عليا» برئاسة الحاج أمين الحسيني، حدّدت مهمتها متابعة اعمال اللجان القومية وتوجيه الاضراب حتى تحقيق الاهداف التالية:

«١ ــ منع الهجرة اليهودية منعاً باتاً».

«٢ ــ منع انتقال الاراضي العربية إلى اليهود».

«٣ ــ انشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي»[٢٥].

هزّت انباء الاضراب العام في فلسطين الاقطار العربية والعالم، بينما كان عرب فلسطين يصعّدون الاحداث فيها، فينتقلون من الاضراب العام الشامل إلى العصيان المدني الشامل، حيث قرّر مؤتمر اللجان القومية، الذي انعقد في القدس بتاريخ ٧ ايار / مايو ١٩٣٦ الدعوة بالاجماع إلى «اعلان الامتناع عن دفع الضرائب اعتباراً من ١٥ أيار الجاري إذا لم تغيّر الحكومة البريطانية سياستها تغييراً اساسياً تظهر بوادره بوقف الهجرة اليهودية «كما قرر المجتمعون» مقاطعة اليهود وتأليف اللجان لهذه الغاية»[٢٦]. في هذه الاثناء، كانت جماهير الشعوب العربية في مختلف اقطارها تتجاوب مع الانتفاضة الفلسطينية بحماس منقطع النظير، فتطوع الكثير من الشباب العربي لمؤازرة العمل الوطني في فلسطين، كما تطوع الكثير منهم لجمع التبرعات دعماً لتلك الانتفاضة.

واستمر الاضراب في تصاعد مطرّد، فعمّ كل القطاعات في البلاد (باستثناء القطاعات الضرورية لحياة الناس)، وتوقف الكثير من العرب الفلسطينيين عن ممارسة اعمالهم الحرة ووظائفهم الحكومية، ابتداء من المخاتير الذين اعلنوا «انهم يعتبرون انفسهم مستقيلين وقدموا للسلطة اختامهم»، وصولاً إلى المحامين الذين قرروا «الاضراب عن حضور المرافعات ما عدا ما يتعلق بقضايا الاضطرابات»[٢٧]. امّا الموظفون العرب من الدرجة الاولى، وفي مختلف الدوائر الرسمية : فقد ارسل عدد كبير منهم مذكرة إلى سلطات الانتداب (وقعّها ١٣٧ موظفاً) وتتضمن المطالبة بوقف هجرة اليهود إلى فلسطين [٢٨]، كما تتالت برقيات التأييد من مختلف رؤساء الطوائف الدينية ومن الزعماء والرجال الوطنيين في الاقطار العربية.

أمام هذا السيل العارم من التأييد، وأمام هذا الاصرار العنيد من الشعب العربي الفلسطيني، لم تجد سلطات الانتداب في فلسطين اسهل عليها من التنكيل بزعماء البلاد الذين يقودون الحركة الوطنية، وهكذا، ما ان بدأ تنفيذ العصيان المدني (في ١٥ أيار / مايو ١٩٣٦)، حتى خرجت التظاهرات في المدن الفلسطينية فقابلتها قوات الانتداب باطلاق الرصاص وبالتنكيل اعتقالاً وضرباً، وباعلان الكثير من احكام الاعدام والحبس والاعتقال، وكانت شراذم مسلحة من اليهود تعاون الانكليز في اعمالهم القمعية هذه، فثارت ثائرة الجماهير، وبدأت «عصابات مسلحة» تظهر في الجبال وتهاجم دوريات الانكليز ومخافرهم، كما تهاجم المستعمرات اليهودية وتنسف الجسور وتقطع خطوط الهاتف والمواصلات. وبدأ الاضطراب يتحول، تدريجياً، إلى ثورة مسلحة، ورغم ان سلطات الانتداب حشدت، لاخماد هذه الاضطرابات، نحو ٢٥ الف جندي، إلّا انها عجزت عن ذلك، ولم يجدها نفعاً ان جعلت عقوبة الاعدام أو الحبس المؤبد لبكل من يطلق النار على الجيش أو «البوليس»، الأمر الذي زاد الثورة حماساً

واشتعالاً[٢٩]، فاسقط في يد تلك السلطة، ولم تجد مفراً من اللجوء، كعادتها، إلى الخداع والحيلة، فتوسطت مع بعض الأنظمة العربية، لقاء وعود كاذبة، لعلّ عرب فلسطين ينهون إضرابهم ويضعون حدّاً لثورتهم، على ان تنفذ مطاليبهم . وكان لانكلترا، عن طريق هذه الانظمة، ما أرادت، وفي الحادي عشر من تشرين الأول/ اكتوبر من العام نفسه (١٩٣٦)، صدر عن «اللجنة العربية العليا» بيان بانهاء الاضراب.

وقد جرت، في هذه المرحلة، عدة معارك بين الثوار العرب والانكليز من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة اخرى، خاصة بعد ان وصل القائد فوزي القاوقجي إلى فلسطين في مطلع شهر ايلول، بدعوة من اللجنة العربية العليا، وتسلم قيادة القوات المسلحة للثورة[٣٠]، وكانت اهم تلك المعارك: معركة بلعا بتاريخ ٣٦/٩/٢ (أي بعد وصول القاوقجي مباشرة، وقد قاد هذه المعركة بنفسه)، واستشهد فيها المجاهد خليل بدوية[٣١]، ومعركة «سهل بيت امرين» بتاريخ ٢٨/ ٩/ ٣٦[٣٢] ومعركة جرت «بين قريتي نحالين ورأس أبو عمار»، بتاريخ ٦/ ١٠/ ٣٦، استشهد فيها القائد سعيد العاص[٣٣] وكانت جميعها بين الثوار العرب وجنود الانكليز.

المرحلة الثانية: الثورة المسلحة (اول تشرين الاول / أكتوبر ١٩٣٧ ـــ اول ايلول / سبتمبر ١٩٣٩):

كانت النتيجة الاولى لوقف الاضراب تشكيل لجنة ملكية بريطانية ، برئاسة اللورد بيل، لدرس الاوضاع في فلسطين . وقد وصلت هذه اللجنة إلى فلسطين في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦، وكان قد سبقها اعلان من وزير المستعمرات بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لن تتوقف في أثناء عمل اللجنة مما اثار المناضلين العرب وجعل «اللجنة العليا» تقرر مقاطعة اللجنة الملكية، ولكن الوساطة العربية عادت للعمل من جديد على الخط، و «نصحت» عرب فلسطين بالتعاون مع تلك اللجنة «بالنظر لما لنا من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية في انصاف العرب» ونزلت «اللجنة العربية العليا» عند رغبة الوساطة العربية وعادت عن قرارها بمقاطعة اللجنة[٣٤].

وكم كانت خيبة امل العرب كبيرة، وخاصة اولئك الذين وثقوا بانكلترا وتوسطوا بينها وبين المناضلين الفلسطينيين، عندما صدر قرار اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين إلى دولتين: واحدة يهودية، والأخرى عربية تضم إلى شرق الأردن، وتوضع القدس وما حولها، وحيفا ومنطقتها، وبيت لحم، تحت الانتداب البريطاني[٣٥]، وقد صدر هذا القرار في القدس بتاريخ ٧ تموز /يوليو ١٩٣٧، أي بعد نحو ثمانية اشهر من وصول اللجنة إلى فلسطين وسماعها اقوال الشخصيات العربية واليهودية وشهاداتهم، مع ان القرار كان متخذاً، سلفاً، لمصلحة الحركة الصهيونية ، وكان من الطبيعي أن يرفض عرب فلسطين هذا القرار، رفضاً باتاً، جملة وتفصيلاً.

لم يكن «الرفض» هو الجواب الوحيد الذي ردّ به عرب فلسطين على قرار اللجنة الملكية، بل ان هذا القرار أثار في النفوس غضباً دفيناً ممزوجاً بالأسى وخيبة الأمل، ليس فقط من الانكليز، وكان عرب فلسطين يعرفون جيداً نواياهم، وإنما من اولئك العرب الذين صدقوهم ووثقوا بهم واصروا على انهاء الثورة طمعاً في عدلهم. وتوالت ردود الفعل المستنكرة من مختلف الاقطار العربية[٣٦]، وتداعى الزعماء العرب للاجتماع في «بلودان» لتدارس الموقف ، وفي هذه الاثناء بادرت سلطة الانتداب في فلسطين إلى القيام باعمال القمع والترهيب والاعتقال ضد المناضلين العرب في فلسطين، فحاولت اعتقال المفتي الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العليا (في ١٧ تموز ١٩٣٧)، ولما افلت من يدها اعتقلت المحامي «صبحي الفرا» وكان في منزل المفتي، ثم افرجت عنه في اليوم التالي[٣٧] كما اعتقلت عدداً من المناضلين (أكرم الجاعوني وعوني الشهابي وراسم الحسيني) والقتهم في سجونها واخذت تعذبهم كي يعترفوا «بتهمة اعدادهم والقائهم قنابل يدوية»[٣٨]

بعد كل ما تقدم، لم يعد أيّ شك في انّ بريطانيا تسعى لضرب العرب في فلسطين ضربة قاضية تمكنها من فرض سيطرتها عليهم بقصد تسهيل إقامة الوطن القومي الذي وعدت اليهود به، وان العرب الذين توسطوا لاخماد نار الثورة في فلسطين عام ١٩٣٦ معتمدين على صدق نوايا حليفتهم

بريطانيا، كانوا مخدوعين ومضللين.

لم تكن «عصبة القسّام» قد استسلمت لاضاليل الانكليز، ولم تهادنهم، رغم كل ذلك، وكانت بوادر المرحلة الثانية (مرحلة الثورة المسلحة) قد بدأتها هذه العصبة نفسها عندما اقدمت (في ٢٦ ايلول/ سبتمبر ١٩٣٧) على اغتيال حاكم الجليل اندروز، وكان هذا خصماً حقوداً للعصبة، لايفتأ يلاحق اعضاءها وينكل بمن يقع منهم في قبضته، فثار ثائر الانكليز بعد هذا الحادث وبدأوا ينكلون بكل من يقع في قبضتهم من المناضلين، ممّا اجّج لهيب الثورة من جديد، إلى ان كان يوم ١/١٠/١٩٣٧، حيث اعلنت سلطات الانتداب في بيان لها ، ان «اللجنة العربية العليا وجميع اللجان القومية في فلسطين جمعيات غير مشروعة»، واصدرت اوامرها بالقبض على عدد من قادة النضال الفلسطيني وهم : أحمد حلمي باشا وجمال الحسيني وفؤاد سابا ويعقوب الغصين والدكتور حسن الخالدي ورشيد الحاج ابراهيم، ومعظمهم من أعضاء اللجنة العربية العليا، كما عزلت الحاج أمين الحسيني من منصبه الرسمي كمفتي للديار الفلسطينية ، ومن منصبه كرئيس للمجلس الاسلامي الاعلى[٣٩]، وقد اعتقلت بالفعل كلًا من أحمد حلمي باشا (عبد الباقي)، والدكتور الخالدي وسابا والغصين ورشيد الحاج إبراهيم، ونفقتهم إلى جزيرة «سيشيل»[٤٠]. أمّا المفتي فقد استطاع الافلات من أيديهم واللجوء إلى لبنان في خلال النصف الاول من الشهر نفسه (تشرين الأول ١٩٣٧)[٤١].

كان اعلان سلطات الانتداب الصادر في ١/١٠/٣٧ بمثابة اعلان للحرب على القوى الوطنية المناضلة في فلسطين، إذ انه ما ان علمت تلك القوى بذلك الاعلان حتى نفر مقاتلوها «خفافاً وثقالاً» وصعدوا إلى الجبال وبدأوا بالتصدي لقوات الانتداب في كل مكان ظفروا بها فيه. فهوجمت مخافر قوات الانتداب كما هوجمت مستعمرات اليهود ، مما دعا سلطات الانتداب إلى انشاء محاكم عسكرية لمحاكمة الثوار[٤٢]. ومما زاد الثورة اشتعالاً حكم الاعدام الذي اصدرته سلطات الانتداب بحق الشيخ فرحان السعدي رفيق «القسّام» وخليفته في قيادة عصبته، وقد نفذت هذا الحكم فيه محكمة عسكرية، في ٢٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٧، وهو شيخ صائم في الثمانين من عمره، الأمر الذي الهب حماس الثوار واشعل حقدهم على الانكليز واليهود معاً، ونشطت عصبة من الثوار باشرت عملها باسم «أخوان فرحان» حيث انتشرت فروع لها في مختلف المدن والقرى الفلسطينية[٤٣]، وتصاعدت اعمال الثورة وتعددت وحداتها وقياداتها، إلّا ان التنسيق بين هذه الوحدات ظلّ قائماً طيلة فترة الثورة، وذلك بواسطة «لجنة مركزية» انشئت لهذا الغرض وكان مركزها «دمشق» ويرأسها مناضل رفيق للمفتي هو الاستاذ «عزة دروزة»[٤٤].

أمّا اعمال التنسيق بين مختلف فصائل الثوار فقد تمّ كالآتي:

— إنشاء «القسّاميون» لأنفسهم قيادة عليا مستقلة شملت «المناطق الشمالية في طبريا وصفد وعكا والناصرة وقسماً من منطقة نابلس وقسماً من منطقة القدس الشمالية» وكان قائدهم، بعد استشهاد الشيخ فرحان السعدي، خليل العيسى (أبو إبراهيم الكبير) يعاونه كل من: توفيق الابراهيم (أبو إبراهيم الصغير) وسليمان عبد القادر، المسمى بابي علي[٤٥].

— أمّا باقي الوحدات فقد شكلت أربع مناطق أخرى رئيسية هي:

— المنطقة المتوسطة ، وتشمل لواء نابلس، وفيها أربع قيادات.

— مناطق الجنوب والخليل والقدس، ولكل منها قيادة واحدة.

أمّا أبرز القادة في هذه المناطق فهم: عبد الرحيم الحاج محمد (أبو كمال، وكان القائد العام)، وعارف عبد الرزاق (أبو فيصل)، وحسن سلامة (أبو علي) وعبد القادر الحسيني[٤٦].

إلّا أن التنسيق كان تاماً بين القسّاميين وباقي الواحدات في مختلف المناطق المشار إليها. وكانت البنية التحتية لكل وحدة من هذه الوحدات تقوم على اساس ان القيادة الواحدة تضم عدداً يراوح بين ٥ فصائل و١٥ فصيلة ، وكان ارتباط كل هذه القيادات باللجنة المركزية[٤٧].

وقد اعتمدت وحدات الثوار في قتالها مع العدو اسلوب «الكر والفر» وهو الاسلوب المفضل للثوار عادة، كما شملت عملياتها المسلحة «الدوريات وقوافل الاسلحة والمخافر والمعسكرات والمطارات

والمحطات والمستعمرات الصهيونية وانابيب البترول والجسور والسكك الحديدية»(٤٨) وكان من أهم اهدافها «الاستيلاء على الاسلحة بأي شكل من الأشكال وغنيمة ما يمكن من أموال الحكومة واليهود ، ومعاقبة الخونة الذين يتعاونون مع الحكومة»(٤٩).

وقد نفذ الثوار عدة عمليات اغتيال كان ابرزها اغتيال الضابط الانكليزي سيكرست، وقد اغتاله المناضلان سامي الانصاري وبهجت أبو غربية، إلّا ان سامي الانصاري استشهد في هذه العملية فانتقم له رفيقه ابو غربية بعد اسبوع فقط بقتله اثنين من الطيارين الانكليز(٥٠).

والجدير بالذكر، انّ الثوار اعتمدوا لباس «الكوفية والعقال» شعاراً لهم، فاصبحت السلطات البريطانية تتعمد اعتقال كل من يلبس هذا الشعار باعتباره «فدائياً» الأمر الذي دفع معظم الرجال العرب في فلسطين ، بمن فيهم الموظفون، لارتداء هذا الشعار تمويهاً للفدائيين(٥١).

مقابل ذلك، زادت السلطة من بطشها وانتقامها، فاصدرت الكثير من أحكام الاعدام بحق من يقع في يدها من المناضلين، حتى بلغ من أعدم من ابطال هذه الثورة ١٤٦ ثائراً ، وبلغ عدد من حكم عليهم بأحكام سجن طويلة الأمد نحو الفين، وبلغ عدد المعتقلات ١٤ معتقلاً، وبلغ عدد المعتقلين نحو خمسين الفاً، وفرضت الغرامات على الأهالي ، وهدمت المنازل، بل ونسفت احياء سكنية بكاملها(٥٢)، تماماً كما درج المحتلون الصهاينة على ان يفعلوا ضد المقاومين الفلسطينيين منذ احتلالهم فلسطين.

وحاولت بريطانيا امتصاص زخم الثورة بوعود كاذبة جديدة، فارسلت لجنة فنية لدرس امكانية تقسيم البلاد، واوصت بواسطة عملائها ان هذه اللجنة سوف تتراجع عن مشروع التقسيم، إلّا ان عرب فلسطين اكتشفوا الخدعة الجديدة، فاستقبلوا هذه اللجنة يوم وصولها (في ٤ كانون الثاني / يناير ١٩٣٨)، بالمظاهرات والاحتجاجات واعلنت اللجنة العربية العليا (وكان قد اعيد تشكيلها) مقاطعة اللجنة الزائرة(٥٣).

وعادت اللجنة بخفي حنين، واستمرت الثورة في جميع انحاء فلسطين حتى عام ١٩٣٩ «على الدرجة نفسها من القوة والانتشار»(٥٤). إلّا أنّ الأمور بدأت تتعثر منذ مطلع العام المذكور، فعدم وجود قيادة موحدة للثورة «والتنافس بين القادة الذين كانوا يتصرفون وكأنهم امراء اقطاع» والتناقص المطرد في عدد المقاتلين وكميات الاسلحة، كلّ ذلك أدّى إلى «المزيد من الحدّة والتوتر في علاقات القادة مع بعضهم البعض»(٥٥). وكانت الضربة القاصمة للثورة في استشهاد قائدها العام «عبد الرحيم الحاج محمد» في ٢٧ آذار/ مارس ١٩٣٩، الأمر الذي اصاب المناضلين بالذهول والضياع.

وكانت إمارات الحرب العالمية الثانية قد بدأت تظهر في أفق العلاقات الدولية المتأزمة والمتوترة، وما ان اعلنت هذه الحرب في ٣/٩/١٩٣٩ حتى بدأت سلطات الانتداب تضيق الخناق على الثوار كي تتخلص منهم وتتفرغ لحربها الجديدة مع دول المحور، كما ان سلطات الانتداب الفرنسي بدأت بدورها تضيّق الخناق على الوطنيين والمناضلين المقيمين في دمشق، الأمر الذي اضطر معظمهم إلى مغادرة سوريا. وهكذا ، فقد حملت الحرب العالمية الثانية معها نذر القضاء على الثورة في فلسطين، وبدأ المجاهدون الفلسطينيون يغادرون ارض وطنهم إلى بلدان اخرى هرباً من تعسف سلطات الانتداب وجورها، فوصلت اعداد كبيرة منهم إلى العراق بعد اندلاع الحرب مباشرة، فوصل إليها نفر في ٢٤/٩/١٩٣٩ (منهم جمال الحسيني وموسى العلمي واسحق درويش وحسن أبو السعود)، ووصل نفر آخر بعد ذلك (منهم ممدوح السخن وعبد القادر الحسيني وراسم الخالدي وداود الحسيني وغيرهم)، ثم وصل اليها بعد ذلك، في ١٠/١٠/١٩٣٩، واصف كمال، ووصل في ١٤ منه حسن سلامة (قائد المنطقة الجنوبية للثورة الفلسطينية)، وفي ١٦ منه، وصل إلى بغداد كذلك، المفتي نفسه، اتياً من لبنان(٥٦).

وهكذا انتهت الثورة الفلسطينية الكبرى مع بداية الحرب العالمية الثانية، وقد كتب أكرم زعيتر يومذاك: «لا ريب في ان الثورة قد انتهت قتالاً وسلاحاً ومعارك وغارات، وان تكن جذوتها تحت الرماد حتى يحين موعد الكّرة القادمة، فتستأنف فلسطين نضالها الدامي»(٥٧)

وفعلاً، ما لبثت الكّرة التالية ان أزفت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، أي عام

١٩٤٧ ثم عام ١٩٤٨، وتكرّرت المجابهات الفلسطينية ــ الاسرائيلية بعد ذلك مراراً، وفي كلّ مرة كان داود يظن إنه ربح الجولة ضد الفلسطيني، فإذا به يقف مشدوهاً أمام الفلسطيني وهو ينهض من جديد «ومد» (الفلسطيني) يده إلى الكنف واخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب (داود) في جبهته، فارتزّ الحجر في جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض. فتمكن (الفلسطيني) من (داود) بالمقلاع والحجر وضرب (داود) وقتله. ولم يكن سيف بيد (الفلسطيني).

(العهد القديم، سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١٧، الآية ٤٩ و٥٠ ، طبعة صححتها: ثورة الحجارة).

●

* * *

الحــواشــي

(١) للتفصيل، انظر: قيادة الجيش اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص ٢٠١ ــ ٢١٢.

(٢) روي عن رسول الله(صلعم)أنه قال «اتيت بالبراق وهو دابة ابيض (طويل) فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه. فركبته حتى اتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربُط بها الانبياء، ثم دخلت المسجد فصلت فيه ركعتين...» (القرطبي، الجامع لاحكام القرآن جـ ١٠: ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦) وقد اختلف الفقهاء فيما إذا كان اسراء النبي اسراءاً بروحه أو بجسده «فذهبت طائفة إلى انه اسراء بالروح، ولم يفارق شخصه مضجعه، وانها كانت رؤياً رأى فيها الحقائق ، ورؤيا الانبياء حق. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة ، وحكي عن الحسن وابن إسحاق». (م. ن.: ص ٢٠٨).

(٣) انظر توضيحاً لذلك في: الحوت، بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ ــ ١٩٤٨، ص ٢١٨ ــ ٢٢٠.

(٤) م. ن. ص ٢١٩.

(٥) م. ن. ص ٢١٩ ــ ٢٢١.

(٦) م. ن. : ص ٢٢٢.

(٧) الحوت، بيان نويهض، الشيخ المجاهد عز الدين القسّام، ص ٢٥ وانظر الحاشية ٣١ في الصفحة ذاتها.

(٨) الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٣١٩.

(٩) م. ن. : ص. ن. والزركلي، الاعلام، جـ ٦: ٢٦٧ ــ ٢٦٨. والغوري، فلسطين عبر ستين عاماً، جـ ٢: ص ٢٤٩.

(١٠) الحوت، المصدر السابق، ص ٣١٧.

(١١) يذكر عزة دروزة العلاقتين معاً (الحوت، المصدر السابق، ص ٣٢٦). ويذكر الغوري ان الشيخ كامل القصّاب رفيق القسّام في الجهاد، كان ينقل «توجيهات الحاج امين» إلى عصبة القسّام، كما كان ــ أي القصّاب ــ «يتسلم منه ــ أي من الحاج أمين ــ الأموال المطلوبة لنفقاتها واعمالها وتسلحها الخ.. ويسلمها بدوره للشيخ القسّام ليتولى انفاقها ». (المصدر السابق، جـ ١: ٢٥١).

(١٢) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٢٤ عن: صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين (وهو واحد من مناضلي هذه الثورة وشهودها).

(١٣) م. ن.: ص. ن.

(١٤) م. ن.: ص. ن.

(١٥) الغوري، المصدر السابق، جـ ١: ص ٢٥٢.

(١٦) م. ن.: ص. ن.

(١٧) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٢٤.

(١٨) م. ن. : ص ٣١٩ ــ ٣٢٠، والغوري، المصدر السابق: جـ ١: ٢٥٢ ــ ٢٥٣، وجـ ٢: ص٣٨.

(١٩) الزركلي، المصدر السابق، جـ ٦: ٢٦٨.

(٢٠) الغوري ، المصدر السابق، جـ ١: ص ٢٥٣.

(٢١) يشهد على ذلك البيان المنشور في ص ٨٠٧ من كتاب «وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ــ ١٩٣٩ من اوراق اكرم زعيتر» لأكرم زعيتر، والذي ورد حرفياً في عنوانه «القيادة العامة لثورة سوريا الجنوبية فصيلة الشيـخ عز الدين القسّام ، رضي الله عنه».

(٢٢) الحوت، المصدر السابق، ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦.

(٢٢) م. ن.: ص ٣٣١ ــ ٣٣٢، وانظر زعيتر، أكرم، الحركة الوطنية الفلسطينية: ص ٥٣ ــ ٥٤ (يوميات ١٦/٤/٣٦) وص ٥٥ (يوميات ١٧/٤/٣٦).

(٢٤) زعيتر ، م. ن.: ص ٦١ (يوميات ١٩/٤/٣٦).

(٢٥) م. ن: ص ٧٦ ــ ٧٧ (يوميات ٢٦/٤/٢٦).

(٢٦) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٣٧، وانظر: زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٩٠ ــ ٩٥، (يوميات ٧/٥/٣٦).

(٢٧) الحوت، م. ن.: ص ٢٤٢.

(٢٨) م. ن: ص ٣٤٣.

(٢٩) م. ن.: ص ٣٤٩ ــ ٣٥٣.

(٣٠) زعيتر م. ن: ص ١٦١ (يوميات ٣/٩/٣٦).

(٣١) زعيتر، م. ن: ص ١٦٢ (يوميات ٣/٩/٣٦) وص ١٦٧ (يوميات ٥/٩/٣٦).

(٣٢) م. ن: ص ١٩٤ (يوميات ٢٩/٩/٣٦).

(٣٣) م. ن: ص ٢٠١ (يوميات ٨/١٠/٣٦).

(٣٤) الحوت، المصدر السابـق، ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠.

(٣٥) الشقيري، جميل ، مجموعة شهادات العرب في فلسطين أمام اللجنة الملكية البريطانية ، ص ١١٦، وانظر: زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٩ (يوميات ٧ و٨/٧/١٩٣٧).

(٣٦) انظر ردود الفعل هذه عند: زعيتر، م. ن.: ٢٩٩ ــ ٣٠٣ (يوميات ٩ ــ ١٤/٧/١٩٣٧).

(٣٧) م. ن.: ص ٣٠٦ (يوميات ١٧/٧/١٩٣٧).

(٣٨) م. ن.: ص. ن.

(٣٩) م. ن.: ص ٣٣١ (يوميات ١/١٠/١٩٣٧).

(٤٠) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٤١) زعيتر، المصدر السابق، ص ٣٣٦ (يوميات ١٥/١٠/١٩٣٧).

(٤٢) م. ن.: ص ٣٣٨ (يوميات ١٠ و١١/١١/١٩٣٧).

(٤٣) م. ن.: ص ٣٤٠ (يوميات ٢/١٢/١٩٣٧).

(٤٤) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٧٨.

(٤٥) م. ن.: ص. ن.

(٤٦) م. ن.: ص ٣٧٩.

(٤٧) م. ن.: ص. ن.

(٤٨) م. ن.: ص. ن.

(٤٩) م. ن.: ص. ن.، عن: صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين.

(٥٠) م. ن.: ص. ٣٨١.

(٥١) م. ن.: ص. ن.

(٥٢) م. ن.: ص ٣٨٢.

(٥٣) م. ن.: ص ٣٨٣.

(٥٤) م. ن.: ص. ٤٠٠.

(٥٥) م. ن.: ص ٤٠٨ عن: دروزة، حول الحركة العربية الدينية (وهو واحد من مناضلي هذه الثورة وشهودها).

(٥٦) م. ن.: ص ٦٠٦ ــ ٦٠٩ (يوميات ٢٤/٩ و ٢٧/٩ و١٤/١٠ و١٦/١٠).

(٥٧) م. ن.: ص ٦١٠ (يوميات ٣/١١/١٩٣٩).

المـــراجـــع

ــ قيادة الجيش اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط (١) ــ ١٩٧٣.

ــ القرطبي، أبو عبدالله: الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ــ ١٩٦٧.

ــ الحوت، بيان نويهض: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ــ ١٩٤٨، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ــ ١٩٨١.

ــ الحوت، بيان نويهض:الشيخ المجاهد عز الدين القسّام، دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت ــ ١٩٨٧.

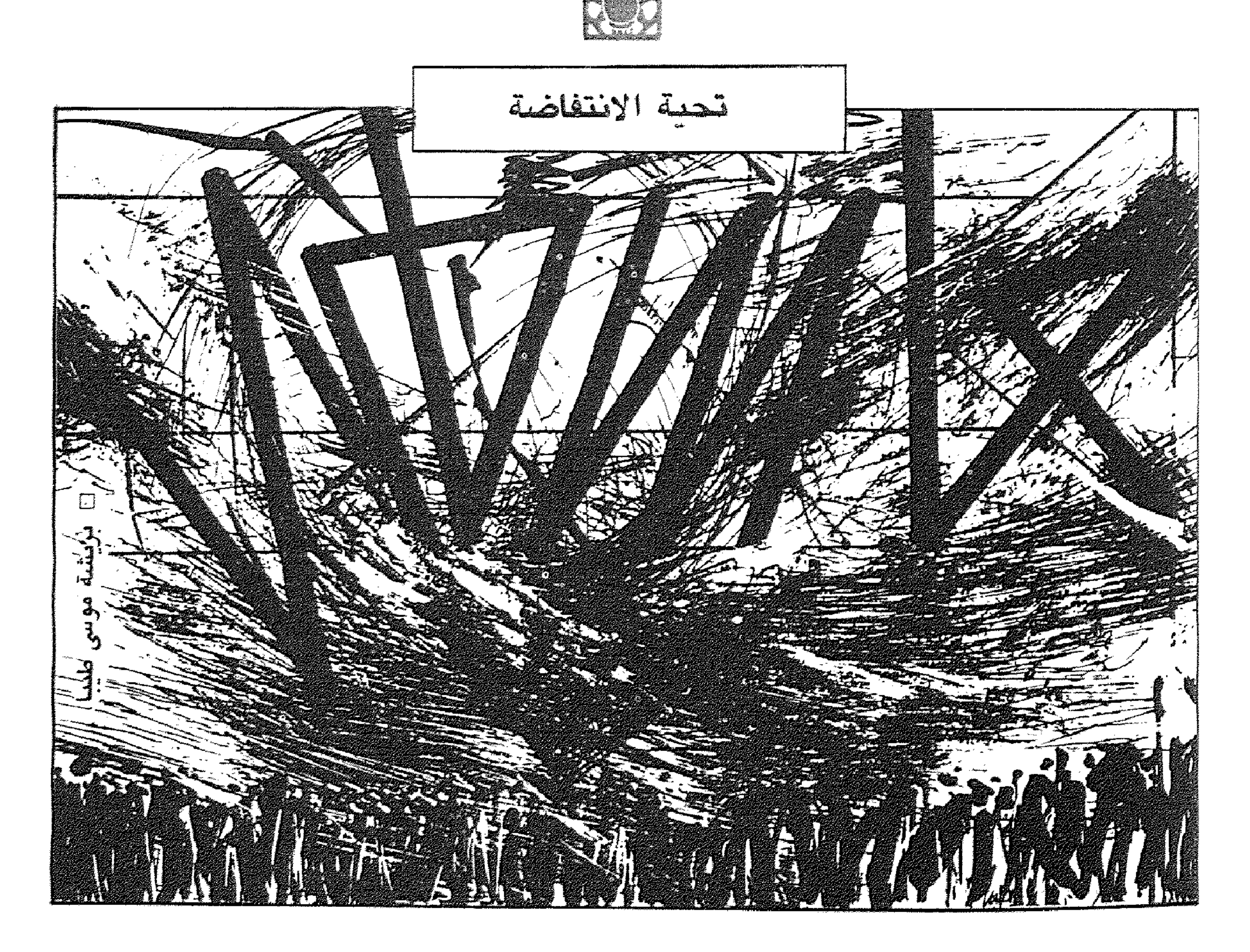
ــ الغوري، أميل: فلسطين عبر ستين عاماً، دار النهار للنشر، بيروت ــ ١٩٧٢.

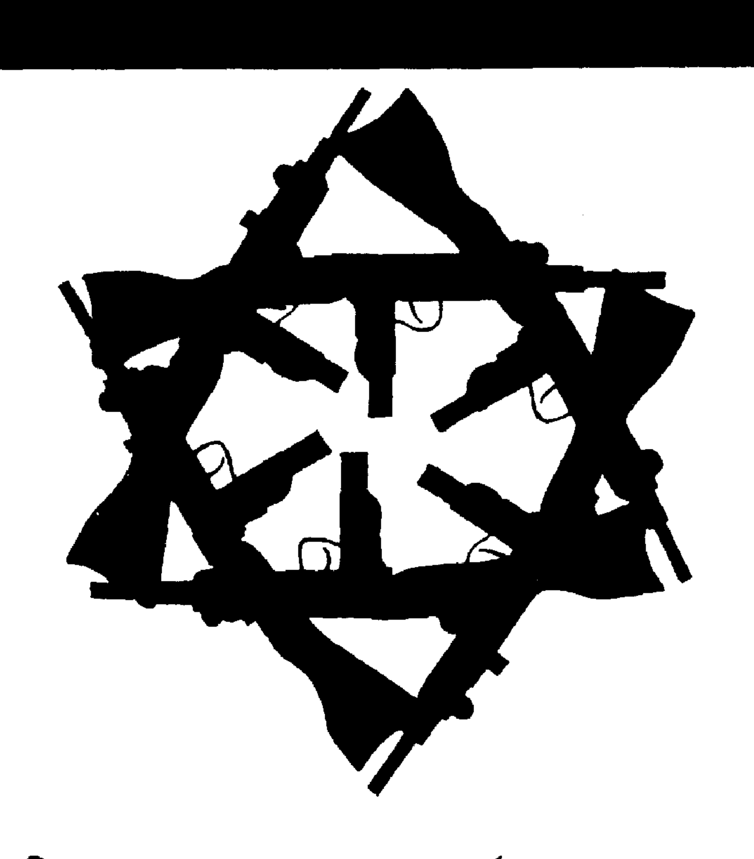
ــ الزركلي، خير الدين: الاعلام، طـ ٢، دار العلم للملايين، بيروت ــ ١٩٨٠م.

ــ زعيتر، اكرم: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ــ ١٩٣٩، من أوراق اكرم زعيتر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ــ ١٩٧٩.

ــ زعيتر، اكرم: الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ــ ١٩٣٩، يوميات اكرم زعيتر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ــ ١٩٨٠.

ــ الشقيري، جميل: مجموعة شهادات العرب في فلسطين أمام اللجنة الملكية البريطانية ، مع خلاصة قرار اللجنة الملكية للدعاية ، مطبعة الاعتدال، دمشق ــ ١٩٣٨.





الانتفاضة
وحق الشعب المضطهد في المقاومة

د. محمد المجذوب

بعد قليل ستدخل الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي العربية المحتلة في شهرها العاشر، وستسجل رقماً قياسياً في مجال التصدّي للمغتصبين. وتعتبر هذه الانتفاضة أعظم تحرك جماعي متماسك هادف شهده العرب منذ بداية الصراع بينهم وبين الدخلاء الصهيونيين.

مغزى الانتفاضة

وللانتفاضة مغزى عميق يتمثل في عدة أمور، أهمها:

أولاً — إن النفحة القومية والثورية ما زالت تعمر قلوب عرب الأراضي المحتلة، فالكيان الصهيوني، بكل جبروته القمعي وأساليبه التعسّفية، خلال السنوات الأربعين المنصرمة، لم يتمكن من إخماد جذوة العنفوان القومي العربي لديهم. لقد بقيت هذه الجذوة ملتهبة وكامنة تحت رماد التمرد تنتقل من جيل إلى جيل برعاية الإيمان القومي الذي يسري في العروق مع الولادة.

ثانياً — إن الانتفاضة التي تعرّضت منذ اندلاعها لأبشع ضروب القمع والبطش،

وافظع أساليب التهديد والوعيد، وأشنع وسائل التفتيت والتآمر، لم تضعف ولم تستسلم، بل تصاعدت واتسعت وانتظمت تحت قيادة وطنية موحدة وقادرة على التكيف مع الظروف والمتغيرات المستجدة.

ثالثاً — إن الانتفاضة قد استفادت من تجارب الشعوب التي خاضت معارك نضالية ضد المستعمرين والمحتلين. ولهذا رأينا أهل الانتفاضة يطبقون أساليب جديدة في مواجهة العدو وارباكه، وفي توجيه ضربات قاسية إلى مقومات وجوده. ولعل الأسلوب الأفضل الذي اختارته يكمن في أمرين:

١ — انتهاج سياسة الاعتماد على الذات في الشؤون الحياتية، فقد دعت قيادة الانتفاضة السكان العرب إلى تشكيل لجان لحراسة الممتلكات والمزروعات وحمايتها من اعتداءات قوات الاحتلال وعملاء المحتلين، كما دعتهم إلى بناء الاقتصاد المنزلي الذي يقضي بإنشاء التعاونيات الزراعية والاقتصادية وتنسيق التعاون الاجتماعي.

٢ — اتباع أسلوب النفس الطويل في المواجهة. وهذا الأسلوب يفترض تغيير المنهج أو التكتيك من وقت إلى آخر، وفقاً لمخطط مدروس ينطلق من فكرة التجاوب والتكيف مع الظروف السائدة والوقائع المتغيرة. ففي البداية، اعتمدت الانتفاضة أسلوب المواجهة والمظاهرات الشاملة والتصدي المباشر لجنود الاحتلال. ولكن العدو لجأ، في هذه الفترة، إلى كل ما يملك من تدابير القمع، فاستعمل الضرب المبرح، وتكسير العظام، وهدم المنازل، وطرد الشباب أو إبعادهم، واعتقال الآلاف منهم. وعمدت الانتفاضة عند ذلك إلى إحداث تغيير في تكتيكها، فلجأت إلى الأعمال المتفرقة والمكثفة والمستمرة، حتى اضطر المتحدث الرسمي باسم الحاكم العسكري للضفة الغربية إلى الاعتراف بأن هذه الحوادث المتفرقة التي حلّت محل المواجهة على نطاق واسع أصبحت تشغل الحيّز الأكبر من طاقة قوات الاحتلال، وبأن الجيش الإسرائيلي يستخدم اليوم لمواجهة الانتفاضة أربعة أضعاف القوة التي يستخدمها عادةً في الأراضي المحتلة.

رابعاً — إن أهل الانتفاضة سئموا الأساليب الملتوية التي تتبعها معظم الأنظمة العربية والفصائل الفلسطينية لمساعدتهم على استرداد حقوقهم. فهم، منذ أربعين عاماً يسمعون كلاماً معسولاً ولا يرون عملاً جاداً واحداً. إن المشاريع التي وُضعت، والمؤتمرات التي عُقدت، والبيانات التي أذيعت، والخطط التي اتخذت من أجل تحرير فلسطين تعد بالآلاف، ولكنها كلها بقيت دون الحد الأدنى من التنفيذ. ولم يعد بمقدور المواطن العربي في الأراضي المحتلة أن يفهم كيف أن الدول العربية التي تملك الثروات الفلكية والمواقع الاستراتيجية والجيوش الجرارة تقف أمام العربدة أو الغطرسة الإسرائيلية عاجزة، وأحياناً ذليلة، رغم إدراكها للخطر الصهيوني الذي بات يتهددها جميعاً دون استثناء. وأمام العجز أو التقاعس العربي فضّل أهل الانتفاضة الاعتماد على النفس وإعلان التمرد والتسلح بالحجارة. وكانوا يتخيلون أن انتفاضتهم، إذا استمرت أسبوعين على الأقل، ستهز المشاعر، وتحرك العواطف، وتحث الأنظمة العربية على اتخاذ بعض التدابير للتجاوب معهم وشد أزرهم. غير أن أملهم خاب، ففترة المد القومي قد ولّت برحيل عبد الناصر، والإقليمية المتزمتة هي سيدة الموقف، والحكام بالمرصاد لمن يبدي رأياً غير رأيهم. وهذا الموقف العربي المتخاذل يذكّرنا بما قاله أبو البقاء الرّندي في رثاء الأندلس:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ
فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ...

يا راكبين عِتاق الخيل ضامرةً
كأنها في مجال السبق عِقبان

وراتعين وراء البحر في دعة
لهم بأوطانهم عزّ وسلطان

اعندكم نبأ من اهل اندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
واليوم هم في بلاد الكفر عُبدان...

المقاومة في الممارسة الدولية

والانتفاضة تطرح، على صعيد الأعراف والقوانين والقرارات الدولية، سؤالاً مهماً يتعلق بحق السكان الخاضعين لاحتلال أجنبي في اللجوء إلى مختلف وسائل المقاومة للتصدي لهذا الاحتلال.

إن معالجة هذا الموضوع من الناحية القانونية والفقهية لا يحول دون التأكيد على وجوب التلازم والتكامل والتفاعل بين الظواهر الاجتماعية والمواقف القانونية والفقهية، إذ بفضل وقوف الشعوب في وجه المعتدين والمحتلين، بعد عجز الدولة أو غيابها أو تغييبها، استطاع الفكر المقاوم تحديد العلاقة بين سلطات الاحتلال وسكان الأراضي المحتلة. وقد جاء هذا التحديد على أساس استمرار علاقة الولاء والتبعية لدولة الأصل وانتفاء أي التزام بالطاعة أو الرضوخ لدولة الاحتلال.

وكان لمختلف أشكال المقاومة التي مارستها الشعوب الرازحة تحت الاحتلال في سبيل الدفاع عن وجودها وكرامتها أثر بارز ودور فاعل في تطوير أحكام القانون الدولي المتعلق بالاحتلال الحربي، والحفاظ على سيادة الدولة المحتلة، وجواز الدفاع عن النفس طلباً للحرية والاستقلال.

وليس في القانون الدولي المعاصر قاعدة واحدة تُحرّم على سكان الأراضي المحتلة القيام بأعمال المقاومة الوطنية، مسلحة كانت أم غير مسلحة. ولم يتخلّف الفقه الدولي الحديث عن الركب في هذا الميدان فاعترف بحق هؤلاء السكان في الثورة على سلطات الاحتلال. بل أن فئة من الفقهاء ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما رأت أن على السكان واجب الثورة وأن هذا الواجب مغروس في نفوسهم بموجب علاقة الولاء المستمرة بينهم وبين دولتهم الرازحة تحت الاحتلال.

وهناك دول غربية كثيرة، منها بريطانيا والولايات المتحدة، أيدت هذا الاتجاه وضمّنت تشريعاتها العسكرية نصوصاً حول انتفاضات الحرب War Rebellions وطالبت المسؤولين العسكريين في قواتها بعدم معاملة المسلحين التابعين لجماعات الشعب الثائر في وجه العدو معاملة اللصوص المسلحين.

والمقاومة، المسلحة وغير المسلحة، على أنواع. وقد مورست منذ القديم. ولكن ممارستها اتّسعت بعد الحرب العالمية الثانية، فأسفر ذلك عن ازدياد الاهتمام بها في المحافل الدولية ومحاولة تنظيمها وإضفاء صفة المشروعية على القائمين بها.

وكانت القواعد التقليدية لقانون الحرب تميّز بين فئتين من الناس: المحاربين الذين يكوّنون القوات المسلحة للدولة، وغير المحاربين الذين ينتمون إلى السكان المدنيين. وفي القرن الماضي أثير خلاف حول الاعتراف بصفة المحارب للمقاتلين غير النظاميين، وذلك في حالتين رئيسيتين: الأولى تتعلق بـ (هبّة الشعب) في وجه العدو، والثانية بفصائل المتطوعين:

و (هبة الشعب) قد تعني انتفاضة السكان المدنيين في وجه العدو الغازي أو المحتل، بناءً على دعوة حكومتهم، وانضمامهم إلى التنظيمات العسكرية الرسمية. وقد تعني أيضاً نوعاً من التعبئة الشعبية العامة والمنظمة. وقد تعني كذلك انتفاضة السكان الذين يهبّون، تلقائياً أو تلبية لنداء السلطات الحاكمة أو التنظيمات الوطنية، إلى حمل السلاح أو أي شيء آخر (ولو كان الحجارة) من أجل التصدي للغازي أو طرد المحتل. وهذا ما فعله الشعب الروسي في العام ١٨١٣ لمقاومة الاحتلال النابليوني.

أما فصائل المتطوعين (أو القناصة كما يُسميهم الفرنسيون) فتتكون من أفراد يشتركون طوعاً في العمليات الحربية دون أن يكونوا أعضاء في أية وحدة من وحدات الجيش النظامي. ولكن الوضع القانوني لهؤلاء الأفراد ما زال غير محدّد. وللألمان والفرنسيين مواقف متباينة في هذا الصدد. فبروسيا مارست هذا العمل في العام ١٨١٣ ضد جيش نابليون وأضفت عليه صفة المشروعية، ولكنها رفضت منح المتطوعين هذه الصفة عندما لجأت فرنسا إليه في العام ١٨٧٠ لمقاومة جيش بسمارك. وحينما فرضت ألمانيا النازية الهدنة على فرنسا، في العام ١٩٤٠، أجبرتها على التعهد بمنع حملة

الجنسية الفرنسية من محاربة ألمانيا عن طريق الانضواء في صفوف الدول التي تخوض الحرب ضد ألمانيا.

ولو راجعنا الاتفاقيات الموقعة في لاهاي في العام ١٩٠٧، وغيرها من الاتفاقيات اللاحقة، لوجدنا أنها كلها تمنح أفراد الميليشيات والمتطوعين صفة المحارب النظامي، إذا توفرت فيهم الشروط الأربعة التالية:

(أ) أن يكونوا تحت إمرة شخص مسؤول.
(ب) أن يحملوا علامة مميّزة ثابتة يمكن تبيّنها عن بعد.
(جـ) أن يحملوا السلاح علناً.
(د) أن يراعوا في عملياتهم قوانين الحرب وعاداتها.

وخلال الحرب العالمية الثانية برزت ظاهرتان تتعلقان بمسألة التصدي لقوات الاحتلال:

١ ــ ظاهرة (القوات الحرة). ففي العام ١٩٤٠ تخاذلت غالبية الحكومات الأوروبية بعد هزيمتها أمام النازيين ووافقت على إيقاف العمليات الحربية. غير أن مجموعات من العناصر الوطنية رفضت الرضوخ لهذا الأمر وقررت متابعة الكفاح بكل الوسائل المتاحة. وهذا ما فعلته (القوات الفرنسية الحرة) بقيادة الجنرال ديغول في فرنسا. وقد ساوى الاجتهاد الفرنسي، وكذلك الأوروبي، بين أفراد هذه القوات وبين المحاربين النظاميين.

٢ ــ ظاهرة (حركات المقاومة). وقد حملت هذه الحركات التي عمّت أوروبا أسماء مختلفة، وأشهرها حركة (الأنصار) التي أبلت البلاء الحسن ضد جيوش المحور.

وبعد الحرب ظهرت، من جديد، أنواع مختلفة من المقاومة غير النظامية، مارست نشاطها في العديد من دول آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وهذا ما دفع الكثير من الباحثين إلى المطالبة بإدخال تعديلات على قوانين الحرب لكي تتمكن من مواكبة التطورات الحديثة في مجال التصدي للمعتدين أو المحتلين، وتستوعب أعمال المقاومة في داخل الأراضي المحتلة أو خارجها، سواء أتوافرت فيها الشروط الأربعة المذكورة أم لا. ولهذا جاءت أحكام المادة الرابعة من اتفاقية جنيف للعام ١٩٤٩، الخاصة بأسرى الحرب، تشمل بحمايتها كل أشكال المقاومة، حتى ولو كانت مستقلة عن الجيوش النظامية، وتخضعها لأحكام قوانين الحرب.

المقاومة في القوانين والقرارات الدولية

إن أحكام القانون الدولي العام المعاصر تُقرّ اليوم بحق كل شعب في مقاومة العدوان أو الاحتلال. وشرعية المقاومة الوطنية، أو شرعية حرب التحرير للتخلص من الاحتلال، ليست مسألة طارئة فاجأت القانون الدولي، وإنما هي مسألة طُرحت في النصف الثاني من القرن الماضي، عندما جرت المحاولات الأولى لتقنين قواعد الحرب.

ولو تركنا جانباً كل الوثائق والمواثيق القديمة التي تكرّس أو تدعم المبادىء المتعلقة بحق المقاومة ومشروعيتها، وانتقلنا إلى ميثاق الأمم المتحدة؛ لوجدنا أن هذا الميثاق لم يكتف بتحريم الحرب واستخدام القوة، بل حرّم كذلك مجرد التهديد باستخدام القوة. إنه لم يسمح بالحرب إلّا في حالة الدفاع المشروع عن النفس، وضمن قيود أو شروط معينة.

ولكن الدول الاستعمارية أصرّت على تفسير حق الدفاع عن النفس بشكل مخالف للواقع. فقد ادّعت أنه يقتصر على الدول فقط دون الشعوب، ورفضت بالتالي مبدأ حروب التحرير وحركات المقاومة الشعبية. إلّا أن غالبية الفقهاء ترى أن هذا الموقف مرفوض بحكم الواقع الدولي. فالدول الصغيرة أو الناشئة لا تقوى على مواجهة عدوان الدول الكبرى بحروب نظامية وفي جبهات تقليدية. إن تفوّق الكبار في السلاح والتكنولوجيا يضطرها إلى ممارسة حقها في الدفاع المشروع عن طريق المقاومة بمختلف أشكالها وأدواتها، وفي طليعة ذلك المقاومة الشعبية وحرب العصابات والعصيان المدني.

وقد مارست شعوب أوروبا هذا الأسلوب ضد الاحتلال النازي، واعترف الجميع بمشروعية عملها. بل أن الدول الكبرى، مثل الولايات المتحدة وبريطانيا، تعاملت مع المقاومة الأوروبية كممثل شرعي لشعوبها وأمدتها بالمال والسلاح.

وبعد الحرب ظهرت اتفاقيات ومواثيق دولية كثيرة كرّست حق الشعب في أن ينتفض ويثور



□ الانتفاضة: تغيير المعادلات.

على الظلم والقهر والاستبداد. فالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الصادر في العام ١٩٤٨، يعتبر، في ديباجته، أنه من الضروري أن يتولى نظامٌ قانوني حماية حقوق الإنسان لئلاّ يضطر المرء، في نهاية الأمر، إلى التمرد على القهر والطغيان.

وتطبيقاً لمبادىء حقوق الإنسان وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام ١٩٦٠ «الإعلان الخاص بمنح الاستقلال للأقطار والشعوب المستعمرة». وقد جاء فيه «إن إخضاع الشعوب للاستعباد الأجنبي والسيطرة الأجنبية والاستغلال الأجنبي يُشكل إنكاراً لحقوق الإنسان الأساسية، ويناقض ميثاق الأمم المتحدة، ويعرض السلام والتعاون العالميين للخطر».

وفي العام ١٩٧٠، أصدرت الجمعية العامة «الإعلان المتعلق بمبادىء القانون الدولي، الخاصة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول». وقد جاء فيه أن «على كل دولة أن تمتنع عن اللجوء إلى أي تدبير قسري من شأنه أن يحرم الشعوب... من حقها في تقرير مصيرها، ومن حريتها واستقلالها. وعندما تنتفض هذه الشعوب وتقاوم (خلال ممارستها لحقها في تقرير مصيرها) أيَّ تدبير قسري كهذا، فمن حقها أن تلتمس وتتلقى دعماً يتلاءم مع أهداف الميثاق ومبادئه».

ومنذ العام ١٩٧٥، نجد في القرارات الصادرة عن الجمعية العامة نصاً يتكرر سنوياً ويتضمن إعادة تأكيد الجمعية «على شرعية كفاح الشعوب في سبيل الاستقلال والسلامة الإقليمية والوحدة الوطنية والتحرر من السيطرة الاستعمارية والأجنبية، ومن التحكم الأجنبي، بكل ما تملك هذه الشعوب من وسائل، بما في ذلك الكفاح المسلح».

وكانت الجمعية العامة قد أصدرت في العام ١٩٧٤ قراراً بتعريف العدوان، اعتبرت فيه الاحتلال عملاً يشكل عدواناً.

أما قراراتها حول حق تقرير المصير للفلسطينيين فتُعدّ بالعشرات. ففي العام ١٩٧٠، أصدرت عدة قرارات أكدت فيها على أن «احترام حقوق الفلسطينيين هو عنصر لا غنى عنه في إيجاد سلم عادل ودائم في الشرق الأوسط»،

واعترفت «لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق وبحق تقرير المصير»، وبحقوقه «في الحرية والمساواة وتقرير المصير وشرعية نضاله من أجل استرداد تلك الحقوق».

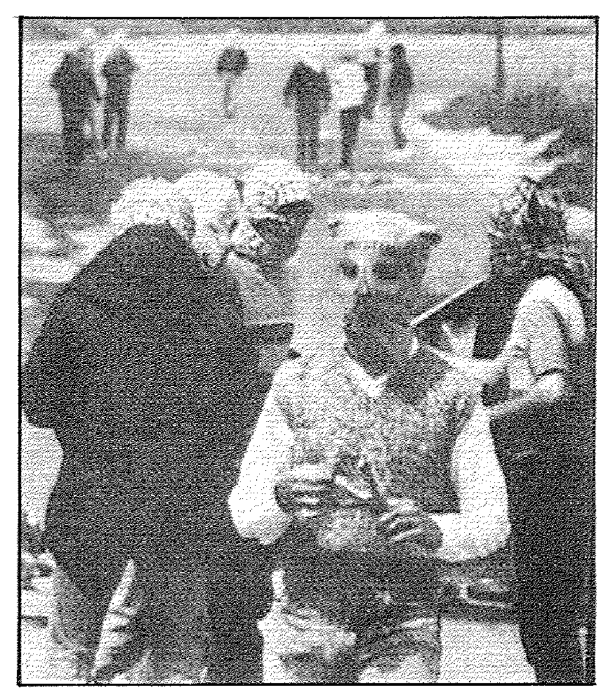
وفي العام ١٩٧٤، اعترفت الأمم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً للشعب الفلسطيني ودعتها إلى الاشتراك في كل الاجتماعات التي تعقدها الهيئات التابعة للأمم المتحدة، وأكدت من جديد «حقوق الشعب الفلسطيني في فلسطين غير القابلة للتصرف، وخصوصاً الحق في تقرير مصيره دون تدخل خارجي، والحق في الاستقلال والسيادة الوطنية».

* * *

والخلاصة أن سكان الأراضي العربية المحتلة في فلسطين أصبحوا يجدون اليوم، في الوثائق والقرارات والمواقف الدولية، ما يبرّر لجوءهم إلى العصيان أو التمرد أو الانتفاضة، أو حتى حمل السلاح، للدفاع عن الأرض والكرامة وحق تقرير المصير.

ولكن الاعتماد على القوانين والقرارات الدولية فقط لا يكفي، فالسيادة المفقودة، أو الأرض المغتصبة، أو الكرامة المهدورة، لا تعاد إلّا بالقوة. والقوة ليست دائماً قوة السلاح؛ فقد تكون قوة الرفض أو قوة الصمود.

صحيح أن الشعوب المستضعفة قد حققت، عن طريق القانون الدولي المعاصر وقرارات الأمم المتحدة، مكاسب عظيمة في حقل الحقوق والحريات والاعتراف بحق المقاومة وحماية رجال المقاومة، ولكن هذه المكاسب وحدها لا تعيد حقاً إلى نصابه ولا ترجع شعباً إلى أرضه، فنحن اليوم نعيش في عالم يسوده منطق القوة، والقوة لا تعالج إلّا بمثلها. ولولا الانتفاضة المستمرة التي تشكل قوة إرادة لشعب مضطهد لما تحرك الرأي العام وكثر الحديث عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني. ●



□ قناع، ومقلاع وحجر، انتفاضة!...

□ على من يستقوون...!؟



● مثل من باع بلاده وخان وطنه. مثل الذي يسرق من مال أبيه وأخيه ليطعم اللصوص. فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافاه.

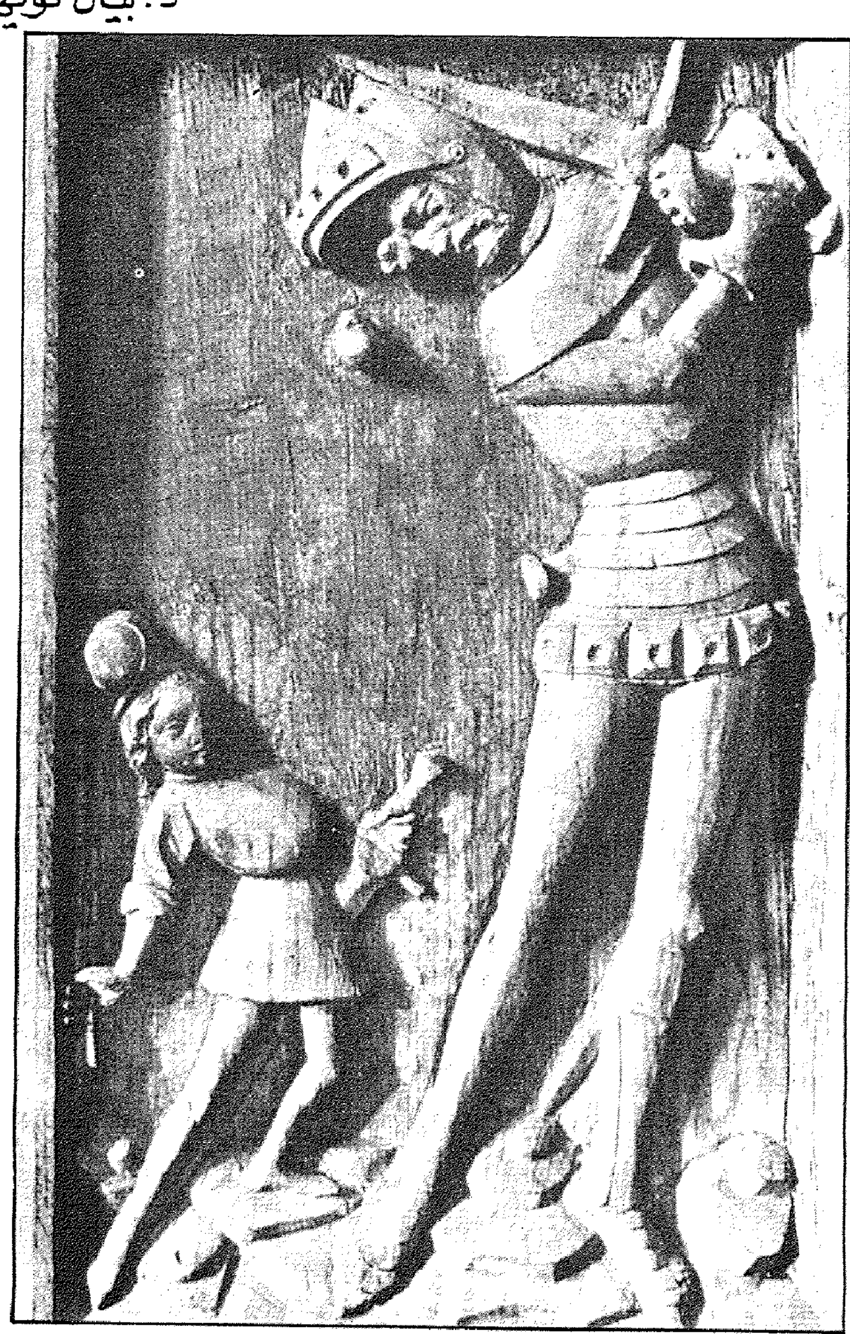
«نابليون»



أسطورة الحجر الكنعاني

من داود وجليات إلى جيل الانتفاضة

د. بيان نويهض الحوت



□ حفر على الخشب، تمثل داود وجليات، تعود للقرن الخامس عشر.

الأرض أرض كنعان

وعلى هذه الأرض، كانت أول الحضارات في المنطقة، حضارة الكنعانيين. وما زالت أقدم الآثار في المنطقة، آثارهم.

استقطبت أرض كنعان الأنبياء والفاتحين والغزاة والمهاجرين والتجار، على مرّ العصور. وكانت أرضاً للصراع، وممراً للجيوش المتقاتلة من الشرق والغرب.

وعبر تاريخها الطويل الحافل بالحروب، نتوقف إزاء الحروب بين بني إسرائيل والفلسطينيين القدماء، ونختار من سلسلة هذه الحروب، حرباً واحدة. ثم، نختار من هذه الحرب يوماً واحداً، بل مشهداً واحداً، هو مشهد النزال بين داود الإسرائيلي وجليات الفلسطيني.

ثلاثون قرناً من الزمن تفصل بين تلك المجابهة في الأمس البعيد، والتي انتهت بمصرع جليات القائد المدجج بالسلاح، بالحجر الذي رماه به داود، فأصاب منه مقتلاً في جبهته، وبين المجابهة التي تتواصل اليوم على أرض كنعان نفسها، بين جيلٍ ثائر من الفلسطينيين، لا يستخدم من أسلحة القرن العشرين سوى الحجارة، وفي مجابهة جيش إسرائيلي يملك من الأسلحة الحديثة المتطورة، ما يضاهي به أقوى الجيوش في هذا العصر.

وقد تبدو المقارنة أسطورية أو روائية، من النظرة الأولى ليس إلا. فالحجارة الصغيرة الملساء بمقلاع الفتى داود، من جبال كنعان ــ وهي العنصر الأقوى في الأسطورة ــ عادت لتظهر من جديد، وبعد ثلاثة آلاف سنة، ومن جبال كنعان نفسها، بأيدي فتيان الضفة الغربية والمنطقة الجنوبية. وتلك هي الصورة المرئية، وأما الصورة الخفية، ففيها تكمن حقيقة الانتصارين الأول والثاني. والأول هو انتصار الفتى داود على القائد جليات كذكرى تاريخية، والثاني هو انتصار جيل الانتفاضة على جيش الاحتلال، كحتمية مستقبلية.

الحقيقة واحدة ولنبدأ بأرض كنعان، وهي الأصل، وهي المهد وهي الساحة.

بلاد كنعان: فلسطين

أثبتت المكتشفات الأثرية ما بين النهرين في العراق، أنّ أولى الهجرات السامية جرت قبل ميلاد السيد المسيح بخمسة آلاف سنة، وربما حدث غيرها قبل ذلك.

ومن أبرز الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية إلى خارجها بالنسبة إلى تاريخ فلسطين، كانت الموجة السامية المعروفة بالموجة الأمورية ــ الكنعانية، وقد استقر الأموريون في المنطقة الداخلية من بلاد الشام، واستقر الكنعانيون في الساحل الشرقي للمتوسط، أي الأرض التي عرفت فيما بعد باسم فلسطين. وما من ريب في أن أرض كنعان قد شملت مساحة أوسع بكثير من الأرض المعروفة اليوم بفلسطين، إذ شملت أجزاء من لبنان وسوريا. فصيدا وصور وأوغاريت، على سبيل المثال، عرفت بالمدن الكنعانية، إلّا أنها تبنّت الأسم الفينيقي الذي أطلقه اليونان على التجار الكنعانيين القادمين إليهم[١]، وأما أرض كنعان: فلسطين، فلم تحمل الأسم الفينيقي يوماً.

قال البعض بأنّ الكنعانيين كانوا منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد، مستقرين في البلاد، وذلك من خلال اكتشاف أسماء مدن كنعانية، ترجع إلى الأسرة الخامسة المصرية (أي في ٢٩٦٥ ق. م)[٢].

وإلى أبعد من ذلك، قال آخرون بوجود الكنعانيين إلى ما قبل سبعة آلاف سنة، وذلك من خلال تتبع الآثار الكنعانية، وأقدمها مدينة أريحا الباقية حتى اليوم، وهي من أقدم مدن العالم[٣].

وإن تأرجحت تقديرات البداية الزمنية لوجود الكنعانيين، فممّا لا خلاف عليه إطلاقاً، أنهم كانوا أول من سكن المنطقة من الشعوب المعروفة تاريخياً، وأول من بنى على أرض فلسطين حضارة، كما كانت اللغة الكنعانية أول لغة تنتشر في البلاد كلّها...

اشتهر الكنعانيون بالزراعة على مختلف أنواعها، وبالتعدين، وصناعة الخزف والزجاج والنسيج، وبرعوا في فنّ العمارة، واستعملوا الحجر المنحوت. وأما داخل بيوتهم، فقد استعملوا الأسرّة والكراسي والفخار وأدوات المطبخ المتنوعة[٤].

ويعتبر المؤرخ فيليب حتّي أن الموسيقى قد تطورت إلى حد بعيد في عهدهم، إذ يقول:

«لم يُعْنَ شعب سامي بالفنّ الموسيقي كما عُنِي به الكنعانيون. فقد اقتبسوا كثيراً من عناصر موسيقاهمْ من شعوب مختلفة توطنت الشرق الأدنى القديم. وسمَوا به إلى أعلى ما عرف في الموسيقى عند معاصريهم. ذلك لأن طقوس العبادة الكنعانية كانت تقتضي استخدام الغناء»[٥].

على الصعيد السياسي لم يكن الحكم في بلاد كنعان حكماً موحداً، بل حكم الدول المدينيّة، وكانت هذه الدول تتقاتل فيما بينها إلّا عند مجابهة الخطر الخارجي. ومنذ القرن الخامس عشر ق. م. إلى أوائل القرن الثاني عشر ق. م. تعرضت البلاد لسلسلة من غزوات الحثيين والمصريين، وكثيراً ما ثار السكان على الاحتلال المصري الفرعوني، حتى آل إلى نهايته تدريجياً.

ولم يستقر الكنعانيون طويلاً بعد ذلك، حتى نازعهم على أرضهم قومان في عصر واحد، إذ جاءهم بنو إسرائيل عبر الصحراء من مصر، وجاءهم الفلسطينيون الأيجيّون عبر البحر من كريت. وعلى الرغم من براعة الكنعانيين في بناء القلاع والأسوار لحماية أنفسهم، وعلى الرغم من براعتهم في صناعة الأدوات الحربية، وعلى الرغم من كونهم أول من أدخل فنّ التعدين في صناعة الأسلحة من البرونز والحديد والفولاذ[٦]، فإنهم لم يشتهروا بأنهم شعب مقاتل. لقد كانوا شعباً مسالماً يدافع عن نفسه ولا يهاجم.

وهكذا، عندما تعرض الكنعانيون في القرن الثاني عشر ق. م. لغزوات الإسرائيليين والفلسطينيين الأيجيين، انتهى الأمر على صعيد الحكم والسلطة باقتسام البلاد، إذ بقي الكنعانيون في قسم من البلاد وفي الداخل، وانتشر الفلسطينيون على الساحل، وفي القسم الغربي، بينما الإسرائيليون في القسم الجنوبي وحتى وسط البلاد. ومنذ دخول يوشع بن نون، وما تلاه في عهد القضاة وحتى عهد الملك شاول، عاش الأقوام الثلاثة مئات من السنين تخللتها سلسلة من الحروب الفلسطينية ـــ الإسرائيلية، والحروب الكنعانية ـــ الإسرائيلية.

عهد شاول

جرى النزال بين داود وجليات في عهد الملك شاول، إلّا أنه من أجل تفهم طبيعة النزال وأسبابه ونتائجه، يجدر التوقف إزاء الموقع والقوة لبني إسرائيل في عهده، وكذلك بالنسبة إلى الفلسطينيين، وهم الذين كان لهم عدة ملوك في الزمن الواحد، إذ كان لكل مدينة ملك، ومن أبرزهم الملك أخيش ملك مدينة جت، وهو أكثر من حارب الإسرائيليين.

تربط الرواية الدينية الإسرائيلية وجود بني إسرائيل بإبراهيم عليه السلام، باعتبارهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: وأما كلمة «إسرائيل»، فتعود أيضاً إلى يعقوب الذي كان يلقب «بإسرائيل»، كما تعود أسباط بني إسرائيل الأثنا عشر إلى أبناء يعقوب، إذ غدا كل ابن ليعقوب أباً لسبط من أسباط اليهود.

ومن كنعان انتقلت أسرة يعقوب إلى مصر بعد استقرار ابنه يوسف فيها، وهناك عاشوا أربعمائة سنة في رغد من العيش، ولا يعرف أي فرعون انقلب ضدهم، وأخذ يعمل على إذلالهم، وفي مرحلة الذل ولد النبي موسى، ولكنه عاش في قصر ابنة الفرعون كما تروي الحكاية. وليس همّنا مناقشة الحكاية الدينية، بل سردها بإيجاز لأهميتها وعلاقتها بسيرة داود.

بعد أن نزح موسى عن مصر، أوحى إليه الرب على جبل الطور في سيناء بالعودة إلى مصر لإخراج بني قومه من عبودية الفراعنة، فعاد مع أخيه هارون، وأخرجا منها بني قومهما، وابتدأت رحلة التيه في سيناء، وكانت نحو ١٢٢٧ ق. م. وقد امتدت رحلة التيه هذه أربعين سنة، بسبب ارتداد قوم موسى عن دينهم التوحيدي إلى عبادة العجل، وخلالها نزلت الوصايا العشر، وخلالها أرسل موسى الرسل مراراً إلى أرض كنعان لجسّ نبضها، ودائماً عاد الرسل بأنباء عن خيرات الأرض، وعن قوة أهلها وبأسهم: وإزاء هذه الأنباء تردد قوم موسى ورفضوا الأقدام على العبور، ولما عزموا أمرهم أخيراً وحاولوا من جنوبي البلاد، لاقوا مقاومة شديدة، مما أجبرهم على التوغل شرقاً باتجاه شرقي الأردن، وهناك توفي النبي موسى، فقاد الجيش

يوشـع بن نون.

صمّم يوشـع بن نون على إبادة الكنعانيين، فالحرب في عرفه إبادة لا نصر، أو مجرد احتلال، وكانت أريحا أول المدن الكنعانيـة في طريقه، فكانت النموذج الأول على سياسة القائد الصلب العنيـد في الحرق والإبـادة، إلّا أنهـا لم تكن النموذج الأخير، فالخليل مثـلاً، وكانت تـدعى يومها «كريات أربـع» ، لاقت مصيـراً مشابهـاً لمصير أريحا.

اقتسم الإسرائيليون الأراضي التي استولوا عليها بين أسباطهم، ومنذ وفاة يوشـع، وطوال عهد القضاة الذي امتد قرنـاً ونصف القرن، لم يتـوحد الإسـرائيليـون، وحتى خـلال حكم صموئيل، آخر القضاة، وأحد الأنبياء؛ وكـان صموئيل، نفسه هو الذي أشار بتعيين شاول بن قيس ملكاً عليهم، لتوحيـد قبائلهم، وكـان هو أيضـاً، من عاد وتنبّأ بقدوم داود ملكاً عليهم، وكان داود بعد فتى يـافعاً، وأصغـر اخوتـه الثمـانية، ويقتصر عمله عـلى رعي غنم أبيـه «يسّى» في بيت لحم.

ولا يعنينا في هذا المجال سير الملوك، بل يعنينا التوقف إزاء موضوعين لا غـير، لأهميتهما في موقـع بني إسرائيل في تاريـخ فلسطين، ويتناول الموضوع الأول مصادر التاريـخ القديم، والثاني أولوية الحضارة الكنعانية في المنطقة. وفي سياق هذين الموضوعين كانت حكاية داود وجليات.

مصادر التاريـخ القديم

تعتبر التوراة، أي العهـد القديم، المصـدر الأساسي أو شبه الوحيد لتاريـخ فلسطين القديم، وذلك باستثناء الكتابات اليونانيـة والرومانيـة المتأخرة.

ولما كانت التوراة كتاباً دينياً مقدساً، فقـد كانت الحقائق تقبل دونما نقاش. ولكن، لما كانت التوراة من كتابة اليهود، وعلى مئات السنين، ولـما كان اليهـود من ألدّ أعـداء الكنعـانيـين والفلسطينيين، لذلك كان مؤرخو اليهود شديدي الوطأة في حكمهم على الفريقين. غير أنّه على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من الصعوبات الناتجة عن تداخل الطبيعتين الدينية والتاريخية في التوراة، عند القراءة والتحليل، فمما لا ريب فيه أن هذا الكتاب يبقى المرجـع الأهم لهذه المرحلة.

وتجدر هنا الإشارة العابرة إلى أنّه من باب التوراة دخل المؤرخون العبريون آفـاق الفكر الأوروبـي (الغربـي) قديمه وحديثه. كما كان لهم أثر واضـح في فنّ التأريـخ، وبالنسبة إلى المؤرخ العبري، فالحدث لا يوجد مصادفة، لأن الأعـمـال من صـنـع الله لعقـاب الشـعـب أو لمكافأته[٧].

وبقيت التوراة هي المصدر الأول للتـاريـخ القديم حتى اكتشاف رسائل تل العمارنة في مصر سنة ١٨٨٧، واكتشاف مدينة أوغاريت في سوريا سنـة ١٩٢٨. ولما كـانت اللوحات والرسـائـل المكتشفة في المكانين، تعود إلى مـا قبل كتـابة التوراة، بل وإلى ما قبل مجيء الإسرائيليين إلى أرض كنعان، فقد أصبحت هذه الوثائق الأصلية القديمة، والتي تقدر بنصف مليون قطعة تتناول شؤون الحياة المختلفة لتلك المرحلة التاريخية، هي المرجـع العلمي للعديد من الأمور والقضايا، ومن أهمها التمييز بين الحقائق والأساطير في التوراة، وكذلك ضبط التواريـخ وفقاً للتسلسل الزمني[٨].

وما يهمّنا التوقف عنده إزاء هذه المكتشفات، مـا أثبتته من أولويـة الحضارة الكنعـانية في المنطقة، وأمّـا عبر المـؤرخين العبـريين، وعبـر التوراة، فقد ظهر الإسرائيليون للعالم، وكأنهم هم بناة الحضارة الأولى.

أولوية الحضارة الكنعانية

كان لاكتشاف مدينة أوغاريت أهمية حضارية أدبية، فقد عثر فيها على مجموعـة كبيرة من اللوحات المسمارية، معظمهـا أساطير ومـلاحم شعرية وأناشيد وصلوات دينية، كتبت معظمها باللغة الكنعانية ـــ الفينيقية. وتكمن الأهمية البـالغة لهذه الثروة الأدبية الفكرية في أنها تعود إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، وذلك إثبات بحد ذاته على أنّ الكنعانيين كانوا بنـاة الحضارة الأوائل، وكانوا الشعراء الأوائـل، وكانـوا هم المبـدعـين في أدب المـلاحم والمـوسيقى قبـل الإسرائيليين بزمن بعيد، فالإسرائيليون تعلموا من الكنعانيين كتابة الشعر وتذوقوا الموسيقى. داود تعلم فيما بعد منهم، فكانت مزاميره. وكذلك

تعلم منهم سليمان، فكانت أناشيده[٩]. وفي هذا المجال يوضح الدكتور أحمد سوسه:

«توصل الخبراء إلى أنّ الكثير مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم وجد مثيله أو ما يشابهه في المدونات السومرية والأكادية والكنعانية والبابلية والآشورية والمصرية، مما يدلّ على أنه ليس لليهود أدب مبتكر أو ثقافة خاصة بهم»[١٠].

صحيح، أن هذا الإثبات قد جاء متأخراً، وبعد ثمانية عشر قرناً من التواصل في تأكيد الإسرائيليين عبر توراتهم، ومؤرخيهم، على أنّهم وحدهم الأوائل، إلّا أنه أثبات قاطع. وقد كان من أصدق المقارنات التاريخية وأبسطها، تلك التي أجراها برستيد، من كبار المؤرخين الثقات، فقد وصف المدن الكنعانية يوم دخلها بنو إسرائيل بقيادة يوشع يعملون فيها حرقاً وقتلاً، بأنها كانت مدناً مزدهرة، فيها الصناعة والتجارة والكتابة والمعابد، وفيها البيوت المترفة المريحة، وفيها الحضارة التي سرعان ما اقتبسها العبريون الرعاة البدائيون، فتركوا خيامهم وقلدوهم في بناء البيوت، كما خلعوا الجلود التي ارتدوها في الصحراء، وارتدوا الثياب الصوفية الزاهية الألوان. وبعد فترة، لم يعد في الإمكان أن يفرق المرء بين الكنعانيين والعبرانيين بالمظهر الخارجي. ثم يؤكد برستيد باختصار، أنّ العبرانيين اقتبسوا الحضارة الكنعانية، كما يقتبس المهاجرون الجدد إلى أميركا، في يومنا هذا، طرائق المعيشة الأميركية[١١].

إن عملية اقتباس العبرانيين أو الإسرائيليين من الحضارة الكنعانية في المدى الأرحب، وكما وصفها برستيد أعلاه، كانت عملية متواصلة، ويبدو أنها كانت آخذةً بالنضوج في عهدي داود وسليمان، أي في القرن العاشر قبل الميلاد. وأما شاول، أول الملوك، والذي نازل في عهده الفتى داود القائد، فقد كان مسكنه خيمة، وعاداته أقرب إلى البداوة، منها إلى الحضارة.

الفلسطينيون

ليس من السهل إجراء مقارنة شاملة بين حضارة الإسرائيليين القدماء والفلسطينيين القدماء في القرن الحادي عشر ق. م.، أي في عهد الملك شاول الإسرائيلي الفلسطينية القديمة لم يبق من معالمها الكثير، وقد اندثرت لغتها ولم يبق منها سوى كلمات، وأهم تلك الكلمات، كلمة «فلسطين».

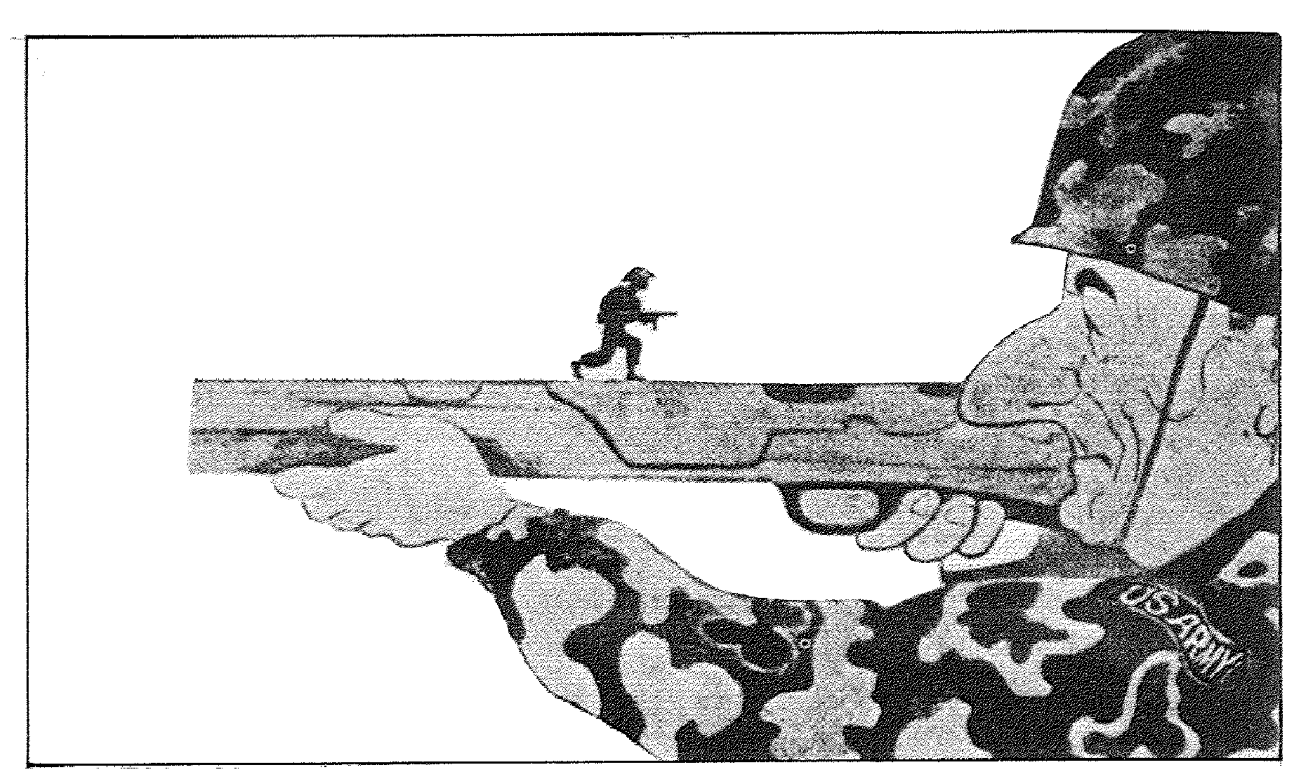
إلّا أن المقارنة بين الشعبين على الصعيد الحربي تبدو ممكنة ــ وخاصة بفضل التوراة والمؤرخين القدماء ــ وهذا فضلاً عن أنّ الناحية الحربية أكثر ما يعنينا في هذا المجال.

تميز الفلسطينيون أو الفلسطيّون بين الشعوب والقبائل التي استقرت في بلاد كنعان، بأنهم ما كانوا من الساميين، فَهُمْ من الأيجيين اليونانيين الذين تركوا بلادهم، يوم زحفت عليها القبائل الهندو ــ أوروبية في أواخر القرن الثالث عشر ق. م.، وكان قدوم الفلسطينيين من جزيرة كريت إلى أرواد وقادش، المحطة الأولى. وفي عهد رعمسيس الثالث (القرن الثاني عشر ق. م.) جرت معركة قاسية بينهم وبين المصريين، ولما تغلب عليهم المصريون، ما كان أمام الفلسطينيين إلّا التوجه شمالاً، حيث استقروا على الساحل الكنعاني (الفلسطيني اليوم).

وما كان صعباً عليهم التغلب على الكنعانيين، والاستيلاء على أهم مدن الساحل، وسريعاً ما امتدت أرضهم من جنوبي من جنوبي الكرمل، حدودهم مع الفينيقيين (الجنوب اللبناني اليوم)، وحتى غزة، حدودهم مع مصر. وقد اشتهرت من مدنهم خمس، وهي غزة وعسقلان وأسدود وعقرون وجت.

لم يختلط الفلسطينيون بغيرهم من الشعوب، وربما يعود ذلك إلى كونهم من الآريين لا الساميين، وربما يعود أيضاً إلى كونهم قد جاؤوا بعائلاتهم، مما أتاح لهم العيش في مجتمعاتهم الخاصّة[١٢].

كان دخول الفلسطينيين أرض كنعان متزامناً مع دخول بني إسرائيل. ويشير البعض إلى سبق دخول الفلسطينيين[١٣]. إلّا أن الأهم من السبق في الوصول إلى البلاد كان السبق في المجال الحربي، فمنذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر ق. م. ، وصل الفلسطينيون إلى أوج قوتهم الحربية. وهم، منذ البداية، تميّزوا بالطابع الحربي، فقد برعوا في صناعة الأسلحة الحديدية وفي استعمالها. وهم أول من بنى



□ صورة معاصرة كاريكاتور تمثل الجندي الاميركي والمقاتل الفيتنامي. وفي النص هناك تشبيه بين هذه الحروب (الغوريللا) وداود وجليات.

مصانـع للحديد على أرض كنعان في الجنوب الغربـي[١٤].

إن أبرز ما يتميز به تاريخ الفلسطينيين هو سلسلة الحـروب التـي خـاضـوهـا مـع بني إسرائيل، ومن أبرز معاركهم المعركة الأولى وتعرف بمعركة أفيق (رأس العين)، وقد انكسر فيها بنو إسرائيل، وقتـل فيها ثـلاثون ألفـاً، كما استولى الفلسطينيون عـلى تابـوت العهد المقدس لديهم، والذي كانـوا يتبـركـون بـه ويحـرصون عليـه كل الحـرص في تـرحـالهم وحروبهم[١٥]. وخبأ الفلسطينيون تابوت العهد في أسدود (إلّا أنهم ردوه فيما بعد إلى داود، بعد أن أصبـح ملكاً، ثم وضـع في هيكل سليمان، ولم يعرف مصيره بعد ذلك).

ونقتبس من سفر صموئيل الأول (٤: ١ — ١١) كيفيّة الاستيلاء على تابوت العهد:

«وكانَ كلامُ صَموئِيلَ إلى جميـعِ إسرائيلَ وخرجَ إسرائيلُ للقاءِ الفِلسطِينيينَ للحرب ونزَلوا عندَ حَجَرِ المعونةِ وأمَّا الفِلسطِينيونَ فنَزَلوا في أفيقَ. واصطَفَّ الفِلسطينيـونَ للقاءِ إسـرائيل واشتبكتِ الحــربُ فَـانكسـرَ إسـرائيـلُ أمـامَ الفِلسطينيينَ وضَرَبوا من الصَّفِّ في الحقلِ نحوَ أربعةِ آلافِ رَجُلٍ. فجاءَ الشعبُ إلى المحلَّةِ. وقالَ شيوخُ إسرائيلَ لماذا كَسَّرَنا اليومَ الربُّ أمامَ الفِلسطينيينَ. لنأخُذْ لأنفسِنـا من شِيلُوهَ تابوتَ عهدِ الربِّ فيدخُلَ في وَسْطِنا ويخلِّصَنا من يدِ أعدائِنا. فأرسلَ الشعبُ إلى شِيلُوهَ وحَمَلُوا من هناكَ تابوتَ عهدِ ربِّ الجنودِ الجالسِ على الكَرُوبيم. وكانَ هناكَ ابْنَا عَالِي حِفْني وفِينْحاسُ مـع تابوتِ عهدِ اللّهِ. وكانَ عند دخولِ تابوتِ عهدِ الربِّ إلى المحلَّة ان جميـعَ إسرائيلَ هتفوا هُتَافاً عَظيماً حتَّى ارْتَجَّتِ الأرض. فَسَمِـعَ الفِلِسطينيونَ صوتَ الهُتَافِ فقالوا ما هُوَ صوتُ هذا الهتافِ العظيمِ في مَحَلَّةِ العِبْرانيينَ. وعَلِموا أَنَّ تابوتَ الربِّ جاءَ إلى المَحَلَّةِ. فخافَ الفِلِسطينيون لأنهمْ قالوا قد جاءَ اللّهُ إلى المَحَلَّةِ. وقالوا وَيْلٌ لنا لأنهُ لم يكنْ مِثْلُ هذا منذُ أَمْسِ ولا ما قَبْلَهُ. وَيْلٌ لنا مَنْ يُنقذنا من يَدِ هؤلاءِ الآلهةِ القادرينَ. هؤلاءِ هُمُ الآلهةُ الذينَ ضَرَبوا مِصْرَ بجمـعِ الضَّرَباتِ في البَـرِّيَّـةِ. تَشَـدَّدوا وكـونـوا رجـالاً أيهـا الفلِسـطينيـونَ لئـلا تُسْتَعْبَـدوا للعِبْـرانِيينَ كما اسْتُعْبِدوا هُمْلكم. فكونوا رجالاً. وحاربوا. فحارَبَ الفِلِسطينيون وانكسَرَ اسرائيلُ وهَرَبوا كُلُّ واحد

إلى خَيْمَتِه. وكانتِ الضَّرْبَةُ عظيمةً جدّاً. وسقطَ من إسرائيلَ ثلاثونَ أَلْفَ راجلٍ. وأُخِذَ تابوتُ اللّهِ وماتَ ابنَا عالي حفْني وفِيْنحاسُ...».

وهكذا، كان الإسرائيليون في انكسار وضياع، عندما كان يظهر جليات أمامهم، يتحدّاهم.

من هو جليات؟

كان الجيشان الإسرائيلي والفلسطيني، كلّ واقفاً على جبل، وطوال أربعين يوماً، لمّا كان جليات قائد الفلسطينيين ينزل إلى الميدان كل صبح ومساء، وهو يرتدي الدرع والخوذة النحاسية والسلاح الكامل، فيتحدّى بني إسرائيل، ويطلب منهم مبارزاً، فلا ينزل منهم أحد، لشدّة ما كانوا يرهبونه. وقد جاء وصف الميدان ووصف جليات في سفر صموئيل الأول (١٧: ١ ــ ١١)، كالآتي:

«وجمعَ الفلسطينيون جيوشَهم للحربِ فاجتمعوا في «سوكُوه» التي ليهوذا ونزلوا بين «سوكُوه» و «عزيقه» في افسٍ «دمّيم». واجتمع شاولُ ورجالُ إسرائيل ونزلُوا في وادي البطمِ واصطفوا للحربِ للقاءِ الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبلٍ من هنا وإسرائيل وقوفاً على جبل من هناك والوادي بينهم. فخرجَ رجلٌ مبارزٌ من جيوشِ الفلسطينيين اسمهُ جُلياتُ من جتّ طولُه ستُ أذرعٍ وشبرٍ. وعلى رأسِه خوذةٌ من نحاسٍ وكان لابساً درعاً حرشفياً ووزنُ الدرعِ خمسةُ آلافِ شاقلِ نحاس. وجرموقا نحاسٍ على رجليه ومزراقُ نحاسٍ بين كتفيه. وقناةُ رمحِهِ كنولِ النسّاجينَ وسنانُ رمحِه ستُ مئة شاقلِ حديدٍ وحاملُ الترسِ كان يمشي قدّامه. فوقفَ ونادى صفوف إسرائيلَ وقالَ لهم لماذا تخرجون لتصطفوا للحربِ. أَمَا أنا الفلسطينيُ وأنتم عبيدُ لشاولَ. اختاروا لأنفسِكم رجلاً ولينزلْ إليّ. فإن قدَرَ أن يحاربَني ويقتلَني نصيرُ لكم عبيداً. وإن قَدَرْتُ أنا عليه وقتلتُه تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا. وقالَ الفلسطينيُّ أنا عيّرت صفوفَ إسرائيلَ هذا اليومِ. اعطوني رجلاً فنتحاربَ معاً. ولما سمعَ شاولَ وجميعُ إسرائيل كلامَ الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جداً».

ذاك هو جليات، والمصدر الأول لنا هي التوراة، ومن خلال التوراة يبدو جليات المحارب الكامل عدةً وسلاحاً وشجاعة، فكيف تغلّب عليه فتى أعزل من السلاح؟

من هو داود؟

داود الذي نبحث عنه هنا ليس داود الملك، بل داود الفتى يوم لقائه مع القائد جليات، «وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر» (صموئيل الأول ١٦: ١٢)، وكان قد اشتهر ببراعته في اللعب على القيثار، وإلى الحد الذي استدعاه رجال شاول للعزف أمام ملكهم، وذاك يوم ابتدأت السوداوية تطغى عليه وبوادر الانحراف تظهر، فأشاروا عليه بالفتى، العازف الماهر، داود، ليعزف له، ويسرّي عن نفسه.

«فجاءَ داودُ إلى شاولَ ووقفَ أمامَه فأحبَّه جداً وكان له حامل سلاح. فأرسل شاولُ إلى يسّى يقولُ ليقفْ داودُ أمامي لأنّه وجدَ نعمةً في عينيّ. وكانَ عندما جاء الروحُ من قِبَلِ اللّهِ على شاولَ أنَّ داودَ أخذَ العود[١٦] وضربَ بيدِهِ فكانَ يرتاحُ شاولُ ويطيبُ ويذهبُ عنه الروحُ الردي». (صموئيل الأول ١٦: ٢١ ــ ٢٣).

ولم يكن شاول يدري يومذاك أن الفتى عازف القيثار هذا، قد مسحه النبي صموئيل في بيت لحم ليصبح ملكاً من بعده وخليفة له، وذلك أن الاحتفال بمسح داود كان ضيقاً ومحصوراً كي لا تصل أنباؤه إلى شاول (صموئيل الأول ١٦: ١ ــ ١٣).

ولا ندري كم أدرك داود من أبعاد هذه النبوءة وآفاقها، إلّا أنه من المعروف أنه استمر في حياته المعتادة يرعى الغنم، ولما استدعي ليعزف أمام الملك، لبّى الدعوة.

التحق ثلاثة من أخوة داود الكبار بجيش شاول، واستمر داود ــ أصغرهم ــ ينتقل بين بيت لحم، حيث يرعى غنم أبيه، وبين خدمته لشاول.

وما مرّ في حياته حتى نزاله مع جليات أمر يذكر على صعيد تدريبه على القتال، باستثناء

الشجاعة الفائقة يوم تمكن من قتل أسد ودب هاجما قطيعه، فتمكن من قتلهما وتخليص الشاة من أنياب الأسد، وما عدا هذه الحادثة التي رواها داود لشاول (صموئيل الأول ١٧: ٣٤ ــ ٣٥)، فلم يعرف أن داود كان مقاتلاً، كل ما عرف عنه أنه صغير إخوته، وراعي غنم، وعازف قيثاره.

يوم النزال

بينما كان القائد جليات يتحدى الإسرائيليين يومياً، فلا ينازله أحد، طلب يسّى من ابنه داود أن يذهب إلى المحلّة، فيأخذ الطعام لإخوته، ويتفقد سلامتهم، ثم يعود منهم بعربون.

وصل داود إلى الميدان صباح اليوم التالي، وكان الجيش يتهيأ للحرب، فشاهد كيف اصطف الفريقان صفاً مقابل صفّ، فترك ما معه مع حافظ الأمتعة، وركض يسأل عن إخوته، وهو يستمع إلى جليات وهو يصعد من صفوف الفلسطينيين، فيتحدّى الإسرائيليين ويعيّرهم بجبنهم، ويشاهد الرعب الذي أصاب قومه، وهروبهم من أمام جليات.

سأل داود من حوله، ما ثواب الذي يتمكن من قتل هذا الفلسطيني الأغلف؟ وقيل له: «... فيكونُ أنَّ الرجلَ الذي يقتلُهُ يُغْنيهِ الملكُ غنىً جزيلاً ويعطيه ابنتَه ويجعلُ بيتَ أبيه حراً في إسرائيل (صموئيل الأول ١٧: ٢٥). وما أن رأى آلياب الأخ الأكبر لداود أخاه قادماً، حتى وبخه على قدومه وتركه غنيمات أبيه تسرح في البرية، فادعى داود أمام أخيه أنه لن يحارب، ولكنه كان قد اتخذ قراره في داخل نفسه، وقد أعلن قراره هذا لشاول لما استحضره أمامه، قائلاً له: «... عبدُكَ يذهلُ ويحاربُ هذا الفلسطينيَّ» (صموئيل الأول ١٧: ٣٢).

حاول شاول أن يردع داود لكونه غلاماً، بينما جليات رجل حرب منذ صباه، ولكنّ داود تسلح بحكاية قتل الدب والأسد قائلاً بأن الرب الذي أنقذه منهما ينقذه من يد هذا الفلسطيني.

ولبس داود درعاً وخوذة من نحاس وتقلّد سيفاً، ولكنه ما استطاع المشي بها، فنزعها عنه، «وأخَذَ عصاهُ بيدِهِ وانتخبَ له خمسةَ حجارةٍ ملسٍ من الوادي وجَعَلَها في كِنْفِ الرعاةِ الذي له أي في الجراب ومقلاعَهُ بيدِهِ وتقدَّمَ نحو الفلسطيني». (صموئيل الأول ١٧: ٤٠).

اقترب جليات من داود، وأمامه كان يتقدم حامل الترس، ولما رآه فتى غرّا أعزل من السلاح، احتقره وقال له: «ألعلّي أنا كلبٌ حتى أنَّك تأتي إليَّ بِعِصيٍّ. ولعَنَ الفلسطينيُّ داودَ بآلهتِه. وقال الفلسطينيُّ لداودَ تعالَ إليّ فأُعطي لحمَك لطيورِ السماءِ ووحوشِ البرية». (صموئيل الأول ١٧: ٤٣ ــ ٤٤).

وردّ عليه داود بقوله: «أنت تأتي إليَّ بسيفٍ وبرمحٍ وبترسٍ. وأنا آتي إليك باسمِ ربِ الجنودِ إلهِ صفوفِ إسرائيلَ الذين عيَّرْتَهم جيش هذا اليومَ يَحْبِسُك الرب في يدي فأقتُلك واقطَعُ راسَك. وأعطي جثثَ جيش الفلسطينيين هذا اليومَ لطيورِ السماءِ وحيواناتِ الأرضِ فتعلمُ كلُ الأرضِ أنه يوجدُ إلهٌ لإسرائيلَ. وتعلَمُ هذهِ الجماعةُ كلها أنّه ليس بسيفٍ ولا برمحٍ يخلّصُ الرب لأن الحرب للربِ وهو يدفعُكُم لِيدِنا». (صموئيل الأول ١٧: ٤٥ ــ ٤٧).

انتهت التحديات الكلامية بين الخصمين ليبدأ النزال وينتهي في دقائق.

تقدم جليات بكامل أسلحته للقاء داود، إلّا أن داود كان أكثر منه خفة وسرعة، إذ ركض للقائه ماداً يده إلى كنفه، فأخذ حجراً ورماه بالمقلاع فأصاب جبهته إصابة محكمة، سقط جليات أثرها على الأرض قبل أن يستل سيفه من غمده، وكان داود هو الذي ركض نحوه فاستل هذا السيف وقطع به رأس صاحبه.

هرب الفلسطينيون أثر مقتل جبارهم، فقام رجال إسرائيل ويهوذا ولحقوا بهم حتى أبواب مدينتي جت وعقرون. ولما وقف داود أمام الملك شاول، ورأس جليات بيده، سأله شاول: «ابن من أنت يا غلام[17]. فقال له داود ابن عبدك يسّى البيتلحمي»(صموئيل الأول ١٧: ٥٨).

وأراد داود إثبات نصره على الملأ، وخاصة اليبوسيين أهل أورشليم وحماتها، فأخذ رأس جليات وعرضه عليهم (وكان اليبوسيون من الكنعانيين وآخر من استسلم فيما بعد لداود الملك، والذي لم يتمكن من دخول مدينتهم إلّا في السنة الثامنة لحكمه).

إن المصدر الأول والأوحد لأسطورة داود وجُليات أعلاه، ومن بدايتها وحتى نهايتها، هو الإصحاح السابع عشر، كاملاً، من سفر صموئيل الأول، فالصفحات الأربع التي يتألف منها هذا الإصحاح، قد نسجت حولها الروايات وحكايا الأطفال في مختلف اللغات، فأصبحت هذه الأسطورة هي الرمز لتغلّب الضعيف على القوي الجبار.

داود بعد النزال

لا يعنينا في هذا المجال سيرة داود البطل ومن ثمّ، داود الملك، إلّا من حيث علاقة هذه السيرة، بالرجل نفسه، داود، ونفسيته يوم نازل جليات، وقضى عليه.

تحوّل داود إلى «البطل» بأعين الإسرائيليين، فاستثار غيرة شاول الذي ابتدأ يفكر بالخلاص منه، فطلب منه أن يقتل مائة فلسطيني قبل أن يزوّجه ابنته، وفعل داود أكثر مما أراده شاول، فقتل من الفلسطينيين مائتين، ثم تزوج إحدى بنات الملك، إلّا أن العداوة لم تهدأ بين الرجلين. فبقي النزاع الداخلي بين الإسرائيليين بينما الحروب مستمرة بينهم وبين الفلسطينيين، وفي هذه المرحلة قرّر داود أن يلجأ إلى أعدائه الفلسطينيين هروباً من شاول الذي حاول قتله أكثر من مرة. ولم ينجده الملك أخيش، ملك جت، فحسب، بل أعطاه مدينة صقلغ الفلسطينية ليسكنها مع رجاله الستمائة، ومع زوجتيه.

وفي إحدى حروب الفلسطينيين ضد شاول، طلب الملك أخيش من داود أن ينزل هو ورجاله ليحاربوا في صفوف الفلسطينيين، ورضي داود، ولكن أقطاب الفلسطينيين رفضوا ذلك، فهم لم يطمئنوا إلى داود، وطلبوا من ملكهم، أن يعيد داود إلى مكانه (أي صقلغ)، وعندها قال الملك أخيش لداود:

«حيٌّ هو الربُ إنَّك أنْتَ مستقيمٌ وخروجُكَ ودخولُكَ معي في الجيشِ صالحٌ في عينيَّ لأني لم أجدْ فيك شراً من يوم جئتَ إليَّ إلى اليومِ وأمّا في أعين الأقطاب فلستَ بصالحٍ. فالآن ارجعْ واذهبْ بسلامٍ ولا تفعلْ سوءاً في أعين أقطاب الفلسطينيين. فقال داودُ لأخيشَ فماذاً عملتُ وماذا وجدتَ في عبدِك من يوم صرتُ أمامَك إلى اليوم حتى لا آتي وأحاربَ أعداءَ سيدي الملك. فأجابَ أخيشُ وقال لداودَ علِمْتُ أنك صالحٌ في عينيَّ كملاكِ الله. إلّا أن رؤساءَ الفلسطينيين قالوا لا يصعدْ معنا إلى الحربِ...» (صموئيل الأول ٢٩: ٦ ــ ٩).

لو لم تكن التوراة نفسها مصدر هذه الحادثة، لما صدّق أحد أن داود، أعظم ملوك بني إسرائيل، قد التجأ إلى الملك أخيش الفلسطيني واستعدّ ليقاتل معه ضد أعداء «سيده الملك»، أي ضد بني قومه، الإسرائيليين. إلّا أن داود بعد أن أصبح ملك الإسرائيليين كان أول همومه القضاء على الفلسطينيين، فأخذ يلاحقهم حتى تمكّن من إخضاع المدن الفلسطينية كلها، وأما مدينة صقلغ بالذات، وهي المدينة التي احتضنته «لاجئاً سياسياً» أثناء هروبه من شاول، فقد أمر بقتل سكانها جميعاً، نساء ورجالاً وأطفالاً، لئلا يبقى منهم من يخبر[١٨].

وهكذا، يكون الملك داود هو الذي قضى عسكرياً على جيوش الفلسطينيين، فلم يعد لهم ــ فيما بعد ــ على الصعيدين السياسي أو العسكري، شأن يذكر، وإن استمروا في حياتهم على الأرض التي ورثت منهم الأسم، بفضل هيرودوتوس، المؤرخ الكبير، الذي أطلق اسم فلسطين على الساحل، وبفضل الرومان الذين عمّموا الاسم على الأرض الكنعانية، من الشاطىء حتى النهر.

وبرهن داود الملك، على أنه كان ملكاً مثالياً لبني إسرائيل، فهو الملك المحارب، والسياسي، والشاعر، والموسيقي، وهو صاحب المزامير الشهيرة الخالدة.

معاني الأسطورة

عوداً على بدء، على يوم النزال، أو لحظات النزال بين داود وجليات، فمّما لا ريب فيه أنّ داود المحارب الشجاع هو القاسم المشترك بين داود الفتى وداود الملك.

ولن نتوقف عند سائر الصفات، والتي يتناقض بعضها كلياً في سيرة داود، من مرحلة إلى مرحلة. فأين داود الذي جاء وصفه في «قاموس الكتاب المقدس» وهو يتقدم نحو جليات:

«جاء ويمتلكه إحساس رائع بعدل القضية التي يدافع عنها ويحارب لأجلها، ويسود على قلبه وكل مشاعره شعور سماوي بالثقة بالله»[19].

فأين داود هذا من داود الذي خاطب عدوّه الملك أخيش، فيما بعد، «بسيده الملك»، والذي أبدى استعداده للقتال معه ضد بني قومه؟

إن التناقض صارخ. ولعلّ في هذا التناقض يكمن شيء من طبيعة العصر الذي عاش فيه داود، أو القوم الذين انتسب إليهم؛ إلّا أن داود، محور الأسطورة، هو داود الفتى يوم نازل جليات، وقد ورد عن هذا النزال في القرآن الكريم، فنزلت ثلاث آيات متتاليات تتناول المضمون دون التفاصيل، أي أنها تتناول قضية انتصار المؤمنين على الكافرين. وجليات في القرآن الكريم جالوت.

«... قالوا لا طاقةَ لنا اليومَ بجالوتَ وجنودِه، قالَ الذينَ يظنّونَ أنّهم مُلاقوا اللّهِ كم من فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله، والله معَ الصابرين. ولمّا بَرَزُوا لجالوتَ وجنودِهِ قالُوا ربَّنا أفرغْ علينا صبراً وثبّتْ أقدامَنا وانصرنا على القومِ الكافرين. فهزمُوهم بإذنِ اللّهِ وقتلَ داودُ جالوتَ وآتاه اللّهُ الملكَ والحكمةَ وعلّمَهُ مما يشاء...» (سورة البقرة ٢: ٢٤٩ ــ ٢٥١).

فالمعنى الأول إذن من الأسطورة، ما أظهرته الآيات البيّنات من انتصار المؤمن بالله وصاحب الحق.

والمعنى الثاني ما أظهرته التوراة من كيفيّة تغلّب الأعزل من السلاح على غريمه المثقل والمدجج بالسلاح.

إن مجابهة كهذه، شبه مستحيلة، ولكنها كانت ممكنة مع داود، ذلك لأنه لم يكن حقيقة، أعزل من السلاح، فالسلاح الذي كان بيده، وهو الحجر، «سلاح» لم يتنبه له جليات، وهو يتقدم نحوه، وقد اختفى داخل الدرع والنحاس الواقي والخوذة العالية جسده ورأسه إلّا جبهته ووجهه. وجليات بطيء الحركة لثقل ما يحمل، وجليات بحاجة إلى الاقتراب من داود كي يستعمل سلاحه، وبينما جليات يقترب، ولا يغمر مشاعره إلّا الاستخفاف بهذا الفتى الغر الأعزل، ينقض عليه الفتى بمنتهى المهارة والخفة، فينقف جبهته بالحجر، كما ينقف العصفور الطائر.

فالمعنى الثاني من الأسطورة أذن، ليس ما يشاع حولها من تغلّب الفتى الأعزل على القائد المدجج بالسلاح، ولكنه تغلّب الضعيف الذكي الماهر بعنصر المفاجأة، وعنصر «السلاح» الذي لم يكتشف وجوده خصمه بعد، وكان هذا السلاح في أسطورة داود وجليات، هو الحجر.

ويبقى المعنى الثالث في عقل جليات وقلبه، فهذا القائد المحارب، والذي يعتبر بسلاحه الكامل النموذج الأول في عصره، إذ لم يكن يتقدم عليه أي محارب آخر، من شعب آخر، لا في نوعية السلاح الذي يملكه، ولا في حسن استخدامه؛ هذا القائد قد تملكه الغرور، حتى وقع في خداع الشكل والمظهر، والحسابات الخاطئة، مركزاً كل اهتماماته على استحالة تفوّق خصم أمامه، ما لم يكن يضاهيه ــ على الأقل ــ مظهراً وسلاحاً. ولما كان داود بعيداً كل البعد عن مظهر المحارب الكامل، أو شبه الكامل، فقد سيطرت على جليات تجاه خصمه مشاعر الازدراء، ولم يحاول للحظة، أن يحسب حساب وجود سلاح مستتر، ولذلك كله، فهو لم يحاول أن يتهيأ لخصم لا يضاهيه مظهراً في «طبقة المحاربين»، فالحرب، كما فهمها جليات، تعتمد نظرية «الطبقات».

وهذا المعنى الأخير، يركّز عليه المؤرخ توينبي في مناقشته لإسطورة داود وجليات، فهو يعرض تطور العديد من الجيوش وانتصاراتها، ومن ثم، استغراقها في نشوة من النصر، وفي سحابة من الغرور، وإلى الحدّ الذي تهمل معه الاهتمام بالقيم في تنشئة الجند، وفي هذا الإهمال يكمن سر انحدارها وهزيمتها أمام جيوش جديدة، تملك سلاحاً متطوراً، وتملك القيم، وتملك الشجاعة[20].

جيل الانتفاضة

إن المقارنة بين انتفاضة فلسطين اليوم، وبين وقفة داود أمام جليات، مقارنة تبدأ بالحجر، ولا تنتهي بألف داود وداود، بين جيل الانتفاضة.



ربما يبدو ظاهرياً، أن **الفلسطينيين اليوم هم ورثة جليات**، إلاّ أن هذه النظرة خاطئة، فالفلسطينيون اليوم، هم ورثة فلسطين، لا الفلسطينيين القدماء وحدهم، والفارق كبير.

الفلسطينيون اليوم، هم ورثة الكنعانيين، بناة الحضارة الأولى.

هم أبناء القبائل العربية البائدة التي سكنت أرض كنعان، من العمالقة والمديانيّين والإسماعيليين والمَعِينيين وقيدار.

هم أبناء القبائل العربية التي سكنت واستقرت منذ حوالي الألفي سنة، هم أبناء الأنباط والغساسنة، والعديد من القبائل التي لم تعد تحصى، والتي كانت أكبر هجراتها مع الفتح العربي الإسلامي، ولكنها لم تكن آخر الهجرات.

ومنذ الفتح، استقر العرب في فلسطين، وكان عددهم في ازدياد لا نقصان. والأهم من ذلك، أنهم استمروا، واستقروا، ولم يهاجروا حتى عهد المؤامرة، عهد بلفور.

ويقرأ الفلسطينيون تاريخهم كاملاً غير مجتزأ، وهم على اختلاف طوائفهم يعرفون جيداً المكانة الدينية لبلادهم لدى الأديان السماوية الثلاثة، فنظرتهم إلى التاريخ أصلاً ليست انتقائية كالنظرة الصهيونية التي تأخذ ما تريد وفق أهوائها، وتنكر كل الإنكار ما لا يوافق أهواءها.

فلسطين هي الأصل والبداية والنهاية.

وداود النبي الشاعر الملك، في تاريخ فلسطين، لم يتنكر له شعب فلسطين يوماً، بل أشار إليه باحترام، وتلك مزاميره ما زالت تقرأ وتُرتل.

والفلسطينيون القدماء أيضاً، يشار إليهم باحترام، فقد أضافوا إلى التراث الحضاري الكثير، وخاصة في فن التعدين، وفي فنون الحرب، فهم جزء من تاريخ فلسطين. **وأما التسمية التي ورثها شعب اليوم، عن شعب الأمس البعيد، فهي مجرد تسمية متوارثة، وليس معناها أن الفلسطينيين اليوم هم جليات بالأمس**. والمقارنة ليست مقارنة عرقية أو شعوبية أو اسمية، فهي في حقيقتها مقارنة بين موقف وموقف مشابه، في تاريخ بلد واحد.

داود كان في موقف المؤمن الذي استثار حماستَه وشجاعته وحكمته موقف الخصم المزدري بوجوده أصلاً، وتحدّي الخصم له لكونه من طبقة أو شعب دونه كفاءة وشجاعة بمراحل.

وجيل الانتفاضة اليوم، في موقف المؤمن الذي يستثير حماسته وشجاعته وحكمته ووحدته موقف العدوّ المزدري بوجوده أصلاً، وتحدّي العدو له باعتباره «شعباً» لا يستحق الحياة.

إن الذين يدعون اليوم أنهم تجمعوا في فلسطين من أجل إعادة بناء مملكة داود وسليمان، فهؤلاء هم الذين يقفون اليوم وقفة جليات.

هم يملكون الجيش المدجج بأحدث أنواع الأسلحة، ولكنهم يعجزون عن استعمال هذا السلاح أمام جيل الانتفاضة، كما عجز جليات عن استعمال سلاحه أمام داود.

وكان جليات بالأمس، رجلاً فرداً، فتمكن منه خصمه بالحجر على جبهته، وأما جليات اليوم، أي «إسرائيل»، فجبهتها لا ترى بالعين المجردة، كي تسقط كما سقط جليات، فتلك كانت أسطورة. أو... كانت «الأسطورة».

وأما، وقد تلاشت الأسطورة، فقد بقي الرمز، بقي الحجر الذي اهتزّ بسببه جليات، ثم سقط.

وهو الحجر، الحجر الكنعاني نفسه، الذي ابتدأ بسببه، يهتزّ كيان إسرائيل ــ ولأول مرة ــ ولو قليلاً.

الحـــواشي

(١) كلمة فينيقيا أصلاً عن الأسطورة اليونانية، أسطورة الإله فينيق، وقد أطلقت التسمية في القرن الثاني عشر ق. م.

(٢) Allbright, Archacology and the Religion of Israel (1942), p. 68, as quoted in:
أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ: **حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية** (بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧٢)، المقدمة ل ــ م.

(٣) Werner Keller, *The Bible as History: Archaeology Confirms the Book of Books*, Translated from the German by William Neil (London: Hodder & Stoughton, 1956), P. 159.

(٤) راجع حول حضارة الكنعانيين:
مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، الجزء الأول ــ القسم الأول (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥)، ص ٤٦٢ ــ ٤٨٨.

(٥) Philip K. Hitti, *Lebanon in History* (London: Macmillan, 1957) PP. 106 —107

(٦) Stewart C. Easton, *The Heritage* of the Past: from the Earliest Times to the Close of the Middle Ages (New York: Holt, Rinhart and Winston, 1963), P. 115;
Hilti, op.cit., PP. 83 —85.

(٧) Easton, op.cit., P. 115.

(٨) راجع حول أهمية المكتشفات الأثرية الدكتور أحمد سوسة، وهو من أبرز المؤرخين الضالعين بعلم الآثار:
أحمد سوسة، **المرجع السابق**، ص ١٨٣ ــ ١٨٥.

(٩) راجع:
حسن ظاظا، **الساميون ولغاتهم: تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية للعرب** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١)، ص ٥٤ ــ ٥٦.

(١٠) أحمد سوسة، **المرجع السابق**، ص ١٨٥.

(١١) James Henry Breasted, *The Conquest of Civilisation* Revised ed. (New York: Harper & Brothers Publishers, 1938), P. 186.

(١٢) Hitti, op.cit., PP. 180 —181.

(١٣) Lewis Bayles Paton, *the Early History of Syria and Palestine*, Reprint of the 1901ed. (U.S.A.: Hyperion Press,1981), P. 149.

(١٤) مصطفى الدباغ، **المرجع السابق**، ص ٥٣٨.

(١٥) تابوت العهد أو تابوت الشهادة يعتبر الرمز لإله اليهود يَهْوه. وهو خزانة خشبية مكسوة بالذهب من الداخل والخارج، وفيها لوحا الشهادة، أي اللوحان الحجريان اللذان نقشت عليهما الوصايا العشر.

(١٦) ورد اسم الآلة الموسيقية التي عزف عليها داود في الترجمات العربية «العود»، أو «القيثار» وفي قاموس الكتاب المقدس (بيروت: مكتبة المشعل الأنجلية، ١٩٦٤)، المجلد الأول، ص ٣٦١ وردت التسمية: القيثار؛ وهي في «العهد القديم» بالإنكليزية: «Harp».

(١٧) من المستغرب أن يسأل شاول عن اسم داود، وكأنه يراه أول مرة، فداود ــ وكما ورد في التوراة ــ كان يعمل عنده حامل سلاح، ويعزف له على القيثار ليسرّي عنه.

(١٨) H. Jagersma, *A History of Israel in the Old Testament Period* translated by John Bowden from the Dutch (Philadelphia: Fortres Press, 1983, pp. 97, 102.

(١٩) **قاموس الكتاب المقدس**، تحرير بطرس عبد الملك وجون طمسن وإبراهيم مطر (بيروت: مكتبة المشعل الأنجلية، ١٩٦٤)، المجلد الأول، ص ٣٦٢.

(٢٠) Arnold Toynbee, *A Study of History* (Oxford: Oxford University Press, 1979), vol. IV, PP. 431 — 465.

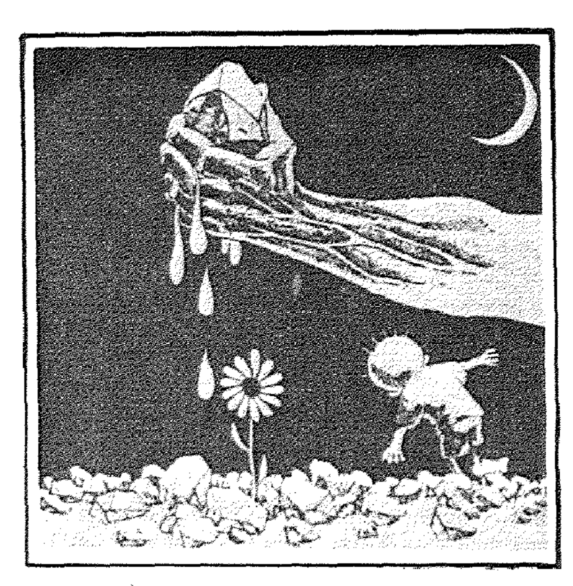
* * *

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة ... فلا تستعدن الحسام اليمانيا
ولا تستطيلن الرماح لغارة ... ولا تستجيدن العتاق المذاكيا
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ... ولا تتقى حتى تكون ضواريا

«المتنبي»

ضوءُ الانتفاضة في ظلمة السّماء العربيَّة

د. أسعد عبد الرحمن



□ «حجارة انتفاضة الضفة» لناجي العلي

من ضمن الظواهر الملفتة للنظر في الانتفاضة الأخيرة لجماهير الشعب العربي الفلسطيني في المناطق المحتلة انها فاجأت الرأي العام العالمي ومن ضمنه العربي. بل ان الانتفاضة فاجأت دولاً وقوى سياسية دولية وعربية، ناهيك عن «اسرائيل» حكومة وقوى سياسية وشعباً، بعدما افترض جميع هؤلاء ان الشعب العربي الفلسطيني قد استكان بين جدران الأسر نتيجة تدجنه وتكيفه واستسلامه في نهاية الأمر لمصيره الجديد الذي مضى عليه فيه عشرون عاماً كاملة. كذلك فإن الانتفاضة الفلسطينية جعلت اجهزة الاعلام الاجنبي، ناهيك عن أجهزة الاعلام العربي، تلهث وراء الاحداث. وكم من مرة وجد فيها الصحافي الاجنبي نفسه. وهو في غمرة ركضة لتغطية احدث الانتفاضة، يتساءل بينه وبين ذاته أو يسأل من ذهب لمقابلتهم من «شيوخ» فلسطين أو بلاد العرب «الذين هم أدرى بشعابها» عما جعل مؤسسته ترسله على جناح السرعة لتغطية وقائع الانتفاضة وعن الأسباب التي تجعل هذه الأخيرة مختلفة عن سابقاتها. وفي هذا السياق، وفي ضوء كل ما جرى في الأسابيع القليلة المنصرمة، لا بأس من ان نسارع إلى طرح السؤال المباشر المحدد: كيف تختلف هذه الانتفاضة عن سابقاتها، وما هو سر الاهتمام الاقليمي والعالمي بها؟. وكيف أضاءت أحداث «كانون الأول المشتعل» — حسب التعبيرات الإسرائيلية — ظلمة السماء العربية؟

إن اول ما اختلفت به هذه الانتفاضة عن غيرها يرتبط بدرجة الفجائية العالية التي تميزت بها من زاوية التوقيت الزمني. ومع ان العلوم الأساسية والتطبيقية قد توصلت، بدرجة كبيرة من الدقة، إلى معرفة مسبقة بمواعيد انفجار البراكين الطبيعية، فإن العلوم الاجتماعية والانسانية لم تنجح بالدرجة نفسها او بما يقترب منها في مجال معرفة مواعيد ثوران «البراكين الشعبية». وعلى رغم ان الامبريالية، والدولة الصهيونية، تتباهيان بقدراتهما على فهم دواخل شعوب العالم الثالث، ومن ضمنه الأمة العربية، ومن ضمنها الشعب الفلسطيني، فإن الاحداث والتطورات الكبرى — من نوع الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة — ما فتئت تفاجأهم وتأخذهم على حين غرة وما كان لهذا الأحساس العارم بالمفاجاة أن يسود هذه الأوساط لولا انها بالغت في تقتها بنفسها وبخبراتها المتراكمة وبقواها البطشية والاغرائية المباشرة وغير المباشرة بحيث جعلها كل ذلك تعتقد إنها نجحت، وإلى فترة طويلة، في تطويق واحتواء وتكييف وتدجين وتيئيس الشعب العربي الفلسطيني تمهيداً لتوقيعه على وثيقة استسلامه!! وفي الوقت الذي اعتقدت فيه هذه الدوائر ان الشعب الفلسطيني قد نال منه الحصار والضرب

والقمـع الذي أصابه بشكل مباشر أو اصاب منظمته وفصائلها، فوجئت الدوائر ذاتها بأن ذلك الشعب قد انتفض وتحرك بعدما بـدا عليه من خنوع أو مـوات مفترضين وظاهرين، بـل ان القمـع الاسرائيلي المباشر قـاد إلى مواجهة بدل ان يؤدي إلى استكانة. كما أن تكالب الأعداء أدى إلى بلورة إرادة التحدي بدل فرض حالة من اليـأس. كذلك، فـإن تجاهـل بعـض الأشقاء والاصـدقاء وكـل الخصـوم والأعـداء للشعب الفلسطيني ولقضيته اسفر عن عزيمة أضافية لاثبات الـوجود. واخيراً، فإن المحاولات الدؤوبة على درب شطب الشعب الفلسطيني من المعادلة زوده بـالقوة اللازمـة لاعادة تثبيت نفسـه ــ بانتفاضتـه الأخيرة ــ عـلى الخريـطة المحلية والعربية والدولية. وهكذا، فـإن السائـرين في «جنازة» الشعب الفلسطيني، الذاهبين إلى المقبرة المعدة لدفنه، وجدوا انفسهم ــ فجأة ــ وجهاً لوجه أمام «الفقيد» أو «المجنـي عليه» الذي لم يكتـف بالانتصاب الشجـاع أمامهم بل بادر إلى قذفهم بالحجارة أيضاً.

ثم، ان ثـانـي ما تميزت به الانتفاضة العربية الفلسطينية الأخيرة هـو كبر حجمها الكمي فهي لم تقتصر على شريحة أو شريحتين من جماهير المناطق المحتلة وهـي لم تكن فقط من صنـع الطلاب سواء كانوا في المرحلة الابتـدائية أو الأعدادية أو الثانويـة أو الجامعية. وهـي لم تكـن بمبادرة مقتصرة على ابناء النازحين في المخيمـات على رغم دورهم الطليعي المبادر في أغلب الأحيـان. ذلك ان الانتفاضـة تجـاوزت الفئات والشرائـح لتشملـها جميعاً ولتظلل تحـت رايتها جميـع الفئات العمرية والجنسية والطبقية بحيث اشتملت على الأطفال واليافعين والصبايا والشباب والرجال وانسـاء والكهول والشيـوخ ومختلف الطبقات المهنية والفلاحية والطلابيـة والتجـاريـة والعمـاليـة. ومن هنـا، اكتسبت الانتفاضة الأخيـرة هذه بعـدها الجمـاهيـري الواسـع الذي جعـل كثيـرين، ومن ضمنهـم المؤرخ الاسرائيـلي يهوشـاع بورات، يسجـل بالحرف الكبير حقيقة كون الانتفاضـة حركـة «شعبية» واسعة وشاملة. وممـا لا شك فيه ان ذلك ما كان ليحدث على هذا النحو لولا ان كأس مرارة وإذلال الاحتلال قـد امتلأ وفاض، ولولا ان مصالح جميع هذه الفئات قد تضررت نتيجة عمق الاستغلال المستمر الممارس ضدهم من المحتلين، ولولا «تـوحد» جميع هذه الشرائـح تحـت وطأة جلد سـيـاط التعسف الأمـنـي والسيـاسي والعنصـري والاقتصـادي الإسرائيلي المنهالة على أجساد وكرامات ونفسيات وحريـات وبطون جماهـير الشعب العربـي الفلسـطيني ماضياً وحاضراً وهكذا، وجدت الدولة الصهيونية نفسها، على رغم حشـدها لكـامل قـواها، في مـواجهـة مـع شعـب وحـدتـه قـوة القهـر الصهيوني / الأمبريالـي من جهة، وقـوة الحلم بالخلاص والتحرر من جهة أخرى.

أما ثالث ما اختلفت به وتمايزت فيه الانتفاضة الشعبية في المناطق المحتلة فقد تبدي باتساع امتدادها الأفقـي الجغرافـي وعلى رغم ان مثل هذا التطور قد حدث سابقاً في المناطق المحتلة بأسرهـا، فإنه كان هذه المـرة أشد وضـوحاً وأرسخ، فما كادت منطقـة فلسطينيـة تصاب بمكـروه حتـى تـداعـى له بـاقـي الجسـد الفلسـطيني، بـل والعربي بـالحمـى والسهر. ومـع ان الأمر لم يقتصر على تضامـن المناطـق المحتلة بعضهـا مـع بعض، فـإن الوشـائـح النضالية المباشرة في ما بينها تجذرت من ناحية، وشدتها على نحو اسرع وافعل من ناحية أخرى. وكما قال الكاتب الاسرائيلي أوري نير في صحيفة «هارتس»، فإنه كان بين الضفة الغربية وقطاع غزة «إشعاع فوري ثنائي الاتجاه» بل إننا ــ في ضوء الوقائـع المتركمة ــ نستطيـع تعميم هذه الحقيقة / الخلاصة بحيث تضاف إليها مناطق الجليل والنقب. والمثلث التي خضعت للاحتلال منذ العام ١٩٤٨. وكم هـي الكتابات الأجنبية، نـاهيـك عن الإسـرائيليـة، التي تحـدثت عن «المفـاجأة» أو «الصـدمـة» أو «اللطمـة» التي أصابت الإسرائيليين وحكومتهم من جراء الموقف الذي اتخذه «فلسطينيو ١٩٤٨» وفي هذا الصدد، طالب عدد من المسؤولين الإسرائيليين باتخاذ اجراءات قمعية ليس ضد المتظاهرين فحسب، وإنما أيضاً ضد اعضاء اللجنة القطرية للمجالس

المحلية. أي القيادة المحلية المنتخبة التي لم تستطع ـ حتى لو أرادت ـ «ضبط» المتظاهرين ومنع «تماديهم» في اعمال العنف الشديد التي شهدتها المناطق المحتلة، بل ان عدداً آخر من المسؤولين الصهيونيين طالب بإعادة فرض الحكم العسكري على الجليل والنقب والمثلث وسائر القرى المحتلة منذ ١٩٤٨. هذا، طبعاً، عدا عن الآثار والانعكاسات التي تركتها الانتفاضة الأخيرة على امتداد نقاط التواجد الفلسطيني خارج الوطن المحتل، كي لا نتحدث عن الانعكاسات عند ابناء العروبة الآخرين وتجاوبهم الواضح الذي سر الصديق وأغاظ الأعداء. ونحن هنا لا نتحدث عما حدث من تضامن في صيدا ومخيم اليرموك وغيرها فحسب، ولا عما ظهر من تعاضد في الأوساط الشعبية والمهنية والطالبية المصرية أو الكويتية وغيرها فقط، وإنما نتحدث عما تبدي من تضامن واسع خارج اقطار الوطن العربي الكبير.

أما رابع ما تميزت به الانتفاضة الشعبية الفلسطينية الأخيرة فقد تجلى في الشجاعة المطلقة التي ابدتها جماهير الشعب العربي المأسور بين جدران الاحتلال من دون انتقاص من الشجاعة التي اظهرتها فئات من الجماهير العربية الفلسطينية في انتفاضات سابقة، فإن مستوى الشجاعة هذه المرة قد ارتفع فوق أي منسوب عادي وربما بسبب الظروف غير العادية التي وصلت إليها أوضاع الجماهير في الوطن المحتل، ومسألة «الشجاعة» هنا ليست مسألة خلقية مطلقة. فنحن نتحدث عن الشعب الشجاع ذاته سواء في هذه الانتفاضة أو غيرها من سابقاتها. غير ان الظروف الموضوعية لهذه الانتفاضة خلقت حالة نفسية جماهيرية موضوعية مختلفة فارتفاع منسوب القهر إلى نقطة أعلى هذه المرة، وبعدما كان من المفترض له أن يؤدي إلى استكانة وخنوع مطلقين ودائمين، إذا بذلك القهر يؤدي إلى شجاعة استثنائية وصلت إلى حدود المغامرة. ثم ان اتساع الانتفاضة واشتمالها على مختلف الفئات عزز ـ كما هو متوقع ـ الثقة بالنفس وزاد من الإيمان الداخلي بقابلية النصر وتحقيق النتائج المرجوة، بعدما تقوت إرادة الفئات المختلفة بمشاركتها ودعمها لبعضها البعض. كذلك، فإن «البعد الديني» الجديد للانتفاضة لعب دوره الخاص والمتميز، وبالذات بعدما تقوت القوى المقاومة تاريخياً للاحتلال بالحضور الجديد المشارك والفعال لقوى سياسية «إسلامية» اختارت مؤخراً سلوك دروب تعانقت فيها قلوبها وايديها مع قلوب وأيادي القوى القومية واليسارية المقاومة منذ المراحل الأولى المبكرة والمتمتعة بالخبرة والمراس في مقارعة المحتل وإلى درجة اصبح معها قتال قوات الاحتلال بمثابة «ديانة سياسية» محركة عنها. وهكذا ـ ومثلما يحدث عادة في كل الحالات التي ترقى فيها قيمة الاستشهاد في النفوس إلى الدرجة المطلوبة، سواء نتيجة دوافع دينية أو وطنية علمانية، أصبح الاستشهاد بديلاً للموت بكل ما يرافق ذلك من نفوس غير هيابة، لا تتوقف عند حدود الدفاع وإنما تتجاوزه نحو الهجوم المتصاعد المطرد، ومن دون خوف من الرصاص المتجه نحو الصدور والرؤوس والاطراف والاجساد. ولقد لاحظ هيرش غودمان مثلاً، في صحيفة «لوس انجلوس تايمز»، ان المنتفضين الفلسطينيين إنما «كانوا يريدون ان يصبحوا شهداء»، وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن عدداً من الصحافيين والكتاب الإسرائيليين أشاروا إلى الخطأ الذي وقع فيه الجيش الإسرائيلي حين لجأ منذ البداية، إلى استخدام الرصاص خارماً نفسه، بالتالي ، من هذا السرح التخويفي الرادع في المستقبل خصوصاً بعدما ثبت ـ في عنفوان الانتفاضة الشعبية الفلسطينية ـ إن الرصاص كان اعجز من ان يخيف المنتفضين.

وعلى صعيد مرتبط بالعامل السابق، يبرز الأمر الخامس الذي تميزت به انتفاضة الشعب العربي الفلسطيني الأخيرة والمتمثل بكون الشجاعة المنقطعة النظير والاستعداد للاستشهاد لدى الجماهير ادى لحظة اصطدامه بالقوى القمعية الإسرائيلية المستشرسة، إلى سقوط عدد كبير من الشهداء والجرحى أكبر مما شهدته أية

انتفاضة سابقة، ناهيك عن المعتقلين والمبعدين. فقوات القمع الإسرائيلي، المؤلفة من جيش وحرس حدود وشرطة ومخابرات ومستوطنين، اصبحت مع تعاقب سنوات الاحتلال، وفي ظل تنامي فكر وقوة القوى الموغلة في اليمين في المجتمع الإسرائيلي، ومع تواكب هذا وتزامنه مع عمليات غسل الدماغ وبشكل اسفر عن فكر عنصري حاد ضد العرب معشش في اوساط الشارع السياسي الإسرائيلي ناهيك عن قوات القمع فيه. كل ذلك أدى إلى شراسة إسرائيلية ذاتية استثنائية. ومع تفاجؤ الإسرائيليين بالانتفاضة اولاً، وبحجمها الكمي ثانياً، وباتساعها الجغرافي ثالثاً، وبشجاعتها الاستثنائية رابعاً، تولدت لدى قوى القمع الإسرائيلي حالة من «الصراع الدموي» الاضافي جعلها تطلق النار للقتل وليس للتخويف او الارهاب فحسب. وكان ان أدى ذلك إلى سقوط شهداء وجرحى جدد. ولان الدم يستسقي الدم من ناحية، ولان كل شهيد «يضيء شعلة جديدة من الكراهية» حسب تعبير آمنون روبنشتاين وزير الاتصالات الإسرائيلي السابق، فإن ذلك أدى إلى اختلاف هذه الانتفاضة عن سابقاتها بسقوط العديد من الشهداء والجرحى. وإذا كانت هذه الحقيقة وما تعنيه من معاني تصعيدية خاصة هو ما سجله بوضوح شديد زئيف شيف، المعلق العسكري الإسرائيلي المعروف، فإن ما استخلصه غودمان في مقالته المشار إليها آنفاً، كان أكثر تعبيراً عندما قال ان «كل ضحية تخلف شهيداً جديداً، وهي سبب آخر لتراكم العنف وتصاعده» مستقبلاً. وبالتالي، فإن الموضوعي ان نستنتج ان هذه الانتفاضة لا تمتاز بما جنته حتى الآن من مكاسب مباشرة وسريعة فحسب، وإنما أيضاً بما استثمرته على درب الانتفاضات المستقبلية المأمولة.

ويتضح سادس ما تميزت به الانتفاضة الأخيرة لجماهير الشعب العربي الفلسطيني داخل الوطن المحتل في ما اسمته المصادر السياسية والاعلامية العالمية بالطبيعة «المحلية» أو «العفوية» أو «الذاتية المبادرة». ومع ان المصادر السياسية والاعلامية الرسمية الإسرائيلية حرصت في البداية على إظهار ما جرى في المناطق المحتلة على شكل «اعمال شغب» حركتها الأيادي «الإرهابية» في «الخارج»، فإن عدداً متزايداً من وسائط الاعلام الإسرائيلية الحزبية والمستقلة عاد فأكد على صفات العفوية والتلقائية والمحلية التي صبغت احداث الانتفاضة. بل ان هذه الوسائط إضافة إلى مثيلاتها الاجنبية، حاولت الغوص بحثاً عن الأسباب الموضوعية التي أدت إلى الانتفاضة وأدت إلى تميزها بالعنف الشديد والشمول الواسع والاستمرارية وغير ذلك من الحقائق التي ارتبطت بحركة الجماهير الفلسطينية في ما اصبح يعرف اسرائيلياً باسم «أحداث كانون الأول المشتعل». ثم عادت بعض المصادر السياسية والاعلامية الاجنبية، وشاركتها في ذلك بعض المصادر الإسرائيلية، للتركيز على هذه الصفات التي اتمست بها الانتفاضة الأخيرة ؛ لكن بقصد جديد إلا وهو الانتقاص من دور منظمة التحرير وفصائلها وإظهار الانتفاضة وكأنها حدث منعزل ومنفصل عن الفصائل والقوى السياسية الفلسطينية غير ان الشعارات اللاحقة للانتفاضة، زائداً تجاوبها البارز والكامل مع دعوات منظمة التحرير للاضراب، خصوصاً في «يوم فتح» في اليوم الأول من العام الجديد، إضافة إلى اتضاح «الصلات والاتصالات» التنظيمية لعدد واسع من المعتقلين في اثناء محاكماتهم السريعة، كل ذلك عاد فوضع الأمور في نصابها وفي هذا السياق، ومع الاقرار باهمية الدور التلقائي والعفوي الريادي لجماهير الشعب العربية الفلسطيني الذي تجلى على أوضح ما يكون عليه التجلي في هذه الانتفاضة الأخيرة، فإن القوى السياسية والفصائل الفلسطينية سرعان ما عادت لتأكيد الصلات ولتتعلم، من جديد، من الجماهير ولتقودها في الوقت ذاته. وفي هذا الأمر المزدوج الأخير ضمانة الضمانات لاستمرار المقاومة وانتصارها قصر الزمان أم طال. ●

(عن «السفير» ١١/٢/١٩٨٨)

قراءة باللبناني لانتفاضة فلسطين

طلال سلمان



ما أبلغ الدروس والعبر التي تلقيها علينا، بغير قصد وبعفوية مطلقة، وكل يوم، هذه الانتفاضة الشعبية المباركة في أرض فلسطين المحتلة، نحن في لبنان المقسم بحدود الجراح أمماً (وأهدافاً) شتى.

إنهم يفعلون، بالضبط، عكس ما يصار إلى ارتكابه بإسمنا هنا، ومن هنا فهم يحتلون كل ساعة مساحة إضافية من اهتمامات العالم ومن وجدان إنسانه، في حين يمكن توجيه التهاني حارة إلى الزعامات اللبنانية الماجدة لنجاحها الباهر في إسقاط لبنان ذاكرة الدنيا، دولاً وشعوباً وأفراداً تنظمهم أحزاب وهيئات أو يتوزعون وفق أمزجتهم والأهواء.

ولنبدأ باستعراض المفارقات الجارحة والمؤلمة ولو بوجوهها الأبرز:

١ ــ هناك يحترك الشعب، بمجموعة، كوحدة، ملتصقاً بالأرض كوحدة، حماية لانتمائه إليها وحقه غير المنازع فيها.

وهنا نكاد نصبح، بفضل قياداتنا ورعايتها لشؤوننا، شعوباً بعدد الطوائف والمذاهب (المسلحة)، وتكاد أرضنا تفقد وحدتها بعدما مزقت «دولاً»، وبعدما افتقدت عنصر وحدتها الأساسي: وحدة إنتماء الشعب الواحد إليها جميعاً.. وكيف تبقى للأرض قيمتها ــ وطنياً ــ إذا كانت «شعوبها» متعددة الانتماءات، وأين الوطنية طالما استوطن «الجمهور» الطوائف، بالقهر أو بالقسر أو بتعذر البديل، لا فرق؟!

٢ ــ هناك توحدت فئات الشعب جميعاً، الاجتماعية والطائفية، السياسية والدينية، تحت لواء هدف نضالي واحد هو توكيد وحدة هوية الأرض والشعب، فالأرض فلسطينية لأن الشعب فلسطيني، والشعب فلسطيني لأن الأرض فلسطينية، والمحتل هو العدو لأنه عدو فلسطينية الأرض والشعب.

... أما هنا فالهوية ما زالت موضع خلاف (؟!)، فقد تكون الأرض لبنانية لكن مواطنيها غير لبنانيين «بمعنى اللبناني اللبناني»، أو أن انتماءهم إلى لبنان ناقص وغير مكتمل!

ثم قد تكون الأرض لبنانية والمواطنون لبنانيين والهوية غربية، حضارياً، أو قد تكون الأرض لبنانية ويكون المواطنون لبنانيين من حيث المبدأ، ولكنهم متعددو الانتماءات عملياً، بعضهم شرقي والبعض الآخر غربي وبعض ثالث محيرَّ أو مخلط وبين بين.

٣ ــ هناك ينتفضون بإرادة واحدة لإعادة تظهير صورة وطن شطبه، بالمعنى السياسي، الاحتلال الإسرائيلي... وهم يؤكدون عبر الانتفاضة أن وحدة الأرض الوطن ــ أرضاً وشعباً ــ أقوى من الاحتلال وأبقى.

... وهنا يتصرف أمراء الطوائف بنا وبالبلاد وكأن الطوائف، وتحت قيادتهم، أبقى من الوطن وأقوى، قد يذهب الوطن، أرضاً وشعباً، قد تذهب دولته (الحكم والحكومة) وتبقى الطوائف ويبقى الأمراء... فالوطن هم، يبقى ببقائهم، فإذا مست إمتيازاتهم «الفوه» ليستبقوها!

والوطن هنا يتحدد بموقع الطائفة في الحكم، فإذا ما طرأ على الموقع أي تعديل، ومهما كان طفيفاً، صارت حتمية إعادة النظر في وجود الوطن أصلاً... فالبيك، وكلهم بيكوات، أهم من الوطن، هو حقيقة ملموسة والوطن خيال أو حلم أو وهم أو شيء من هذا وذاك.



□ صبيان فلسطينيان يرفعان سلاحهما الخشبي في رام الله.





□ جندي إسرائيلي يخمد حريقاً في قلقيلية.

وهنا جيَّرَ كل «زعيم» انتفاضة قسم من الشعب لنفسه عبر إعلانها انتفاضة لمنطقته من بين المناطق، أو لطائفته من بين الطوائف، واقتطعها بإسم الانتفاض لنفسه ولذريته من بعده، وأخرجها من السياق الطبيعي للعمل الوطني من أجل استعادة وحدة الأرض والشعب.

وهكذا صارت عندنا «انتفاضات» بعدد الطوائف المسلحة، ولم يعد لنا وطن.

٤ ــ هناك لا جيش لهم ولا قوات مسلحة ولا سلاح، غير الحجارة المباركة والعصي والمقاليع والزجاجات وإطارات المطاط، وغير ما تصطنعه إرادة المقاومة من أسلحة ووسائل صمود.

... وهنا يمنـع قيام جيش وطني، ويجهر «الأمراء» بأنهم «طوبوا» الجيش لطائفتهم ودمجوه بـ «قواتهم» فجعلوه مجرد ميليشيا طائفية تضاف إلى قائمة الميليشيات الطائفية التي تتناهش في ما بينها ما كان في الماضي مشروع وطن.

وهكذا تتحول مدافع «جيش الشعب» عن أهدافها المفترضة إلى مدن الشعب وقراه، تدكها دكاً، وإلى منازل المواطنين تهدمها على رؤوس أصحابها، مرة بإسم الحفاظ على «الشرعية» كأنما الشعب غير شرعي، أو كأنما شرعية الحاكم أقدس من حياة الشعب، ومرة بإسم الحفاظ على كرامة الجيش كأنما هذه الكرامة منفصلة أو متعارضة مع كرامة الشعب أو أنها تنبع من مصدر آخر!!

على أن ثمة أمراً عاجلاً يرجى التنبه إليه:

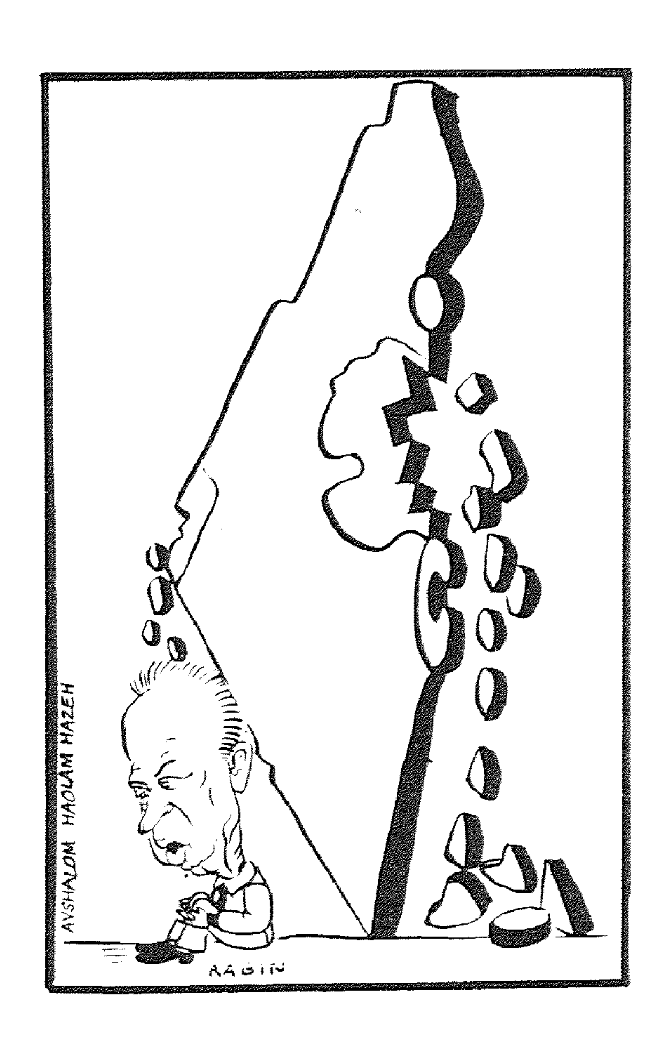
تعودنا أن ننسب أعمال الطيش والرعونة إلى «الصبية»، وكنا حين نريد شتم «زعمائنا» الأماجد نتهمهم بأنهم صبية.

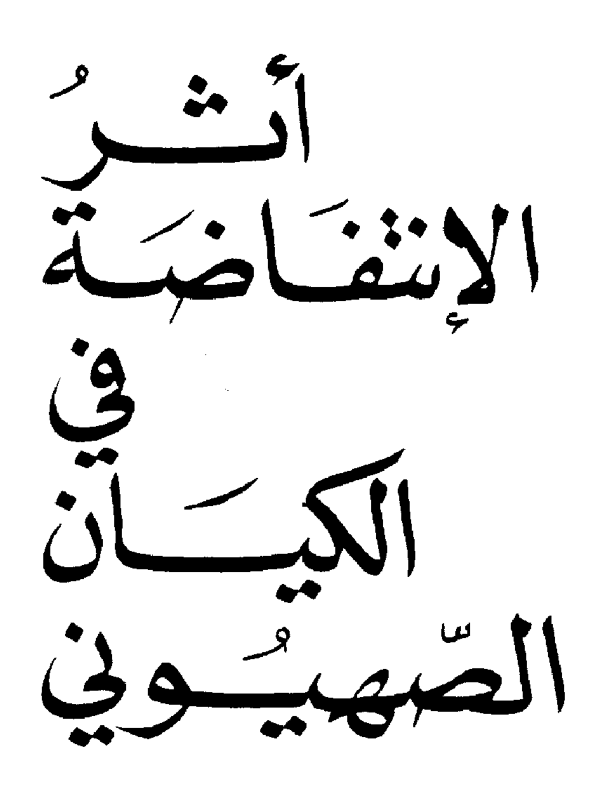
لكم نحن مدينون بالاعتذار اليوم للصبية، بعَض صناع الانتفاضة المباركة وبعض وقودها المقدس.

ولكم نحتاج، بل زعاماتنا والقيادات، إلى بعض هؤلاء الصبية الأبطال، الذين فهموا ما لم يفهمه هؤلاء العضاريط الصناديد عن وحدة الأرض والشعب، وحدة الانتماء، وحدة الوطن، وحدة الهوية، وحدة الأمة، وبالتالي وحدة العدو حتى لو تعددت رؤوسه...

... ومع الانتفاضة المباركة تحية إلى أحد القادة العظماء الذين وعوا هذه الحقيقة وقاتلوا حتى استشهدوا من أجلها، تحية إلى جمال عبد الناصر في ذكرى ميلاده، هو الباقي أبداً في وجدان الثوار والمجاهدين والعاملين لتحرير الأرض والإنسان في أربع رياح هذا الوطن العربي الكبير.

●





أثر الانتفاضة في الكيان الصهيوني

محمود سويد



لا يكتمل الحديث عن أثر الانتفاضة في الكيان الصهيوني مرة واحدة، ولا في معالجة آنية مهما بلغ طموحها إلى الاحاطة والشمول، ما دامت الانتفاضة قائمة ومستمرة، وما دام فعلها يتراكم ويتكامل في حركة يومية متواصلة تستعر احداثها وتتسع وتتشعب وتتشابك، فتنتج هذا الأثر أو ذاك، بقدر ما تحفر في العمق أو على السطح، أو فيما بينهما، في بيئتها اولاً وفي البيئات المحيطة بها والمجاورة لها ثانياً. ومن هنا فإن قراءة ما أحدثت الانتفاضة وما تحدث في المجتمع الاسرائيليّ من أثر هي عملية يومية متصلة ودينامية، تواكب الحدث. تناقش وتستخلص في ضوء معطيات تضاف وتطورات تستجد.

هذه المتابعة اليومية لا تقتصر على رصد حركة المجتمع الاسرائيلي في مواجهة الانتفاضة، فقط، ولكنها تتصل أيضاً بمدى التفاعل الذي تخلقه الانتفاضة مع امتدادها الفلسطيني الخارجي أولاً ومع محيطها العربي ثانياً. وهذا هو شرط اكتمال فعلها وتأثيرها ثم انتصارها.

وربما بسبب هذا الشرط بالذات، والظروف الصعبة التي تعيق تكوينه، لابد من القول، بادىء ذي بدء، ان الانتفاضة على اهمية ما أحدثت من ارتباك في المجتمع الاسرائيلي وانهاك لآلته العسكرية، لم تحدث بعد الأثر الذي يضطر اسرائيل إلى اتخاذ موقف ينعكس بصورة إيجابية على مجريات الصراع العربي ــ الصهيوني، وعلى الحلول المطروحة للقضية الفلسطينية.

فإسرائيل التي شفيت أو كادت من حرب لبنان؛ وإسرائيل التي اطمأنت، بعد ٤٠ سنة على تأسيس الكيان، و ٢٠ سنة على التوسع الامبراطوري، إلى ما احدثت في الجسم العربي من سقم ووهن (فالسلام القائم مع مصر، والحرب العراقية ــ الايرانية وما

تستنزف من طاقات وامكانات وموارد، والحرب في لبنان ونتائجها الفلسطينية خصوصاً، والخلافات العربية الحادة، كل ذلك كاد يتحول إلى ثوابت تريح اسرائيل وتساعدها على اداء دورها كاملاً في المنطقة).

وإسرائيل التي فرضت على المناطق المحتلة علاقات استغلال نموذجية، على كل مستويات الانتاج والاستهلاك والعمالة وفي كل المجالات. علاقات السيد بالعبد بكل ما تنطوي عليه من دونية واذلال فضلاً عن الافقار والحرمان.

واسرائيل التي استقرت الحياة السياسية فيها، منذ انتخابات الكنيست الحادي عشر (عام ١٩٨٤) وتشكيل حكومة الائيتلاف الوطني، على توازن دقيق بين القوتين الرئيسيتين اللتين تتقاسمان السلطة: الليكود وحزب العمل.

إسرائيل هذه، فاجأتها الانتفاضة، كما تفاجيء دائماً ثورات الشعوب المقهورة المستعمر المستبد المعتد بقوته وجبروته. والطريف ان اسرائيل التي بنت أحد اقوى جيوش العالم، لامت نفسها أخيراً لأنها لم تنتبه إلى ضرورة بناء قوة بوليسية متخصصة في قمع الانتفاضات، كما في جيوش العالم الأخرى، ولذلك فقد استعجلت قيامتها العسكرية لسد هذا النقص وتشكيل هذه القوة (يوسي ميلمان — دافار ٢٥/١٢/٨٧: «دوهمت اسرائيل المتخمة المستمتعة على حين غرة» ولم تعط اجهزة الأمن تحذيراً استخبارياً عن امكان وجود تحرك شعبي منظم في المناطق. لا يضم الجيش وحدات مخصصة لتفريق المظاهرات: تجهيزاً وتدريباً. يورام بيري - دافار ١٣/٣/١٩٨٨: اضافة وحدات جديدة إلى حرس الحدود، وتغيير خطط العمل والتدريب، وتطوير وسائل جديدة لتفريق التجمعات. هارتس ١٤/٣/٨٨: انشاء هيئة استخبارية جديدة في ضوء الدروس المستفادة من احداث المناطق، لجمع المعلومات وتقويمها وتقديمها إلى صانعي السياسة، والجديد في مهمة هذه الهيئة انها تشمل ايضاً جمع المعلومات عن العرب في اسرائيل إضافة إلى مهمتها في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧).

وفيما الانتفاضة تفاجيء كل يوم، بما تكتسب، في خلال تجربتها بالذات، من خبرة وتمرسُ وابتداع لأشكال النضال وأساليبه وفنونه وادواته، يحتدم في اسرائيل نقاش يتناول قضايا اساسية في الصراع العربي - الاسرائيلي، ويشمل القيادة السياسية والرأي العام والجيش(*) وتعكس الصحافة الاسرائيلية هذا النقاش الذي ما فتيء يغطي معظم صفحاتها منذ اندلاع الانتفاضة في الاسبوع الاول من كانون الاول / ديسمبر ١٩٨٧ حاجباً إلى حد كبير ما عداها من شؤون واهتمامات.

أولاً: القيادة السياسية

تستأثر القوتان الرئيسيتان الليكود وحزب العمل بالقيادة السياسية في اسرائيل، عبر صيغة الحكومة الائتلافية التي فرضتها نتائج انتخابات الكنيست عام ١٩٨٤ وعدم حصول أي من القوتين على الأصوات التي تمكنها من الانفراد بالسلطة. وعكس هذا التوازن، في احد وجوهه، خلافات التيارين الصهيونيين الرئيسيين حول النظرة إلى القضية الفلسطينية وأساليب معالجة الحلول المطروحة بشأنها. ذلك ان هذه النظرة وتلك الحلول تمس جوهر وجود اسرائيل بالذات، وتضعه، كلما لاح طيف انتصار عربي، على رأس جدول *النقاشات* اليومية الحادة، التي تذكر الاسرائيلي العادي بأن صاحب الحق في البيت والأرض والوطن لا يزال يدق الباب بالحاح، وتضعه — الاسرائيلي العادي — في حالة التباس مقلقة امام حقيبة سفر وسفينة عودة لا يتبين ازاءهما بوضوح ملامح القادم والمغادر.

هذا النقاش يحتدم الآن في اسرائيل كما لم يحصل من قبل. فالانتفاضة تقتحم نقطة التوازن - الخلاف في السلطة وفي الرأي العام، وتهز الطمأنينة الاسرائيلية إلى «سلامة» الوضعين الفلسطيني والعربي، وتدفع بالمواقف إلى حلبة الصراع، فالحسم.

١ - موقف الليكود: يتبلور موقف الليكود والقوى التي تقف إلى يمينه (هتحيا بزعامة يوفال نئمان تسوميت بزعامة رفائيل ايتان،

غوش ايمونيم، كاخ بزعامة مئير كهانا) وتشده باتجاهها في ثلاثة اتجاهات:

أ — يدعو الاتجاه الأول، ويمثله اسحاق شامير رئيس الحكومة، إلى منح الفلسطينيين ادارة ذاتية، كما وردت في اتفاق كامب ديفيد.

ب — ويدعو الاتجاه الثاني ويمثله اريئيل شارون، الفلسطينيين إلى إقامة دولتهم شرقي نهر الأردن. بمساعدة اسرائيل أو بدون مساعدتها. «ثمة حل واحد فقط، إذا كنا سنتحدث عن حل حقيقي: دولة فلسطينية في الأردن. وإذا لم يوافقوا: عندها سيبدأ الحل عندما يوافقون» (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ٢٧) «انني شخصياً أؤمن بمشروع الادارة الذاتية كجسر للسلام. بيننا وبين الدولة الفلسطينية القائمة الآن في الأردن» (يديعوت احرونوت ٢٦/٢/٨٨).

جـ — أما الاتجاه الثالث فيدعو إلى طرد العرب من الصفة الغربية Transfer الأمر الذي يحسم النزاع مرة واحدة، ويقيم وحدة «أرض اسرائيل» الحقيقية والناجزة. ومن ابرز دعاة هذا الحل: ميخائيل ديكل نائب وزير الدفاع. ويوفال نئمان زعيم حركة هتحيا، واللواء احتياط رحبعام زئيفي . (انظر نشرة م. د. ف. عدد ٨ — آب / أغسطس ١٩٨٧ — ص ٥٩٩).

على هامش هذه الاتجاهات ، حدثت في الأشهر الأخيرة خروق طفيفة في جسم الليكود كان ابرزها موقف موشيه عميراف، عضو اللجنة المركزية لحركة حيروت، الذي اقيل من منصبه بعد ان اتهم باجراء الاتصالات مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية .انطلاقاً من قناعته بضرورة اجراء حوار مع المنظمة، وطرح مشروع حل «النقطة المركزية فيه»: «إطار حكم ذاتي فلسطيني في يهودا والسامرة وغزة — دولة تقريباً — تكون منزوعة السلاح وعاصمتها القدس الشرقية: وجيش اسرائيلي على نهر الأردن، والابقاء على المستعمرات ضمن منطقة لا يسرى عليها حكم دولة اسرائيل» (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص١٠٦).

وموقف شلومو لاهط رئيس بلدية تل أبيب الذي ينتمي إلى حزب الاحرار داخل الليكود، اثر مطالبته بالتخلي عن المناطق المحتلة باستثناء القدس لما تشكله من عبء على اسرائيل ولتطور انظمة اسلحة يترواح مداها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ كلم وتحمل كميات هائلة من المواد المتفجرة (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ٢٦ و ١٠٤). وكذلك موقف ايهود اولمرت احد الأعضاء البارزين في حركة حيروت الذي يطالب بتطبيق الادارة الذاتية في المناطق المحتلة، من جانب واحد وتقليص الوجود العسكري الاسرائيلي فيها، وهو التطوير الذي ادخله في وقت سابق موشيه دايان على مشروع بيغن كما ورد في اتفاق كامب ديفيد، (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ١٠٥، ١٠٨).

وإذا كانت هذه الخروق لم تؤثر حتى الآن في تماسك موقف الليكود وزعامته الرباعية: إسحاق شامير، موشيه أرنس، دايفيد ليفي، آرييل شارون، فإن الخارجين من الليكود يسعون إلى اجتذاب آخرين وتكوين تجمعات تخوض انتخابات الكنيست في تشرين الثاني / نوفمبر المقبل، مستقلة أو منضوية تحت أجنحة احزاب أخرى

٢ — موقف حزب العمل: يخوض حزب العمل الصراع الداخلي بزعامة شيمون بيريز، وينافسه على زعامة الحزب اسحاق رابين واشتهر موقف حزب العمل في موضوع التسوية باسم «الحل الوسط الاقليمي» الذي يقوم اساساً على بقاء اسرائيل دولة يهودية وتحاشي انزلاقها نحو دولة ثنائية القومية وتتنازع موقف الحزب اتجاهات متصارعة يشده بعضها يميناً، حتى يكاد يندمج في موقف الليكود: إدارة ذاتية كما في اتفاق كامب ديفيد، ويجذبه بعضها الآخر يساراً فيلامس الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. لكن الموقف الرسمي الذي يمثل وحدة الحزب وتماسك اطره، يمكن تلخيصه بالنقاط التالية:

١ — القدس الكاملة والموحدة لن تقسم وستبقى عاصمة اسرائيل وتحت سيادتها إلى

الأبد.

٢ ــ لا لدولة ثالثة بين اسرائيل والأردن.

٣ ــ لا حوار مع م. ت. ف. بل مع وفد اردني ــ فلسطيني مشترك، لا يكون الفلسطينيون فيه اعضاء في م. ت. ف.

٤ ــ يطالب حزب العمل بمنطقة امنية، وسيادة اسرائيلية على طول نهر الأردن تشكل حاجزاً يحول دون عبور أي جيش عربي النهر غرباً (في حالة السلام) وهو ما يعبر عنه بمبدأ: حدود قابلة للدفاع تسند إلى «غور الأردن» وشمال غرب البحر الميت، والجولان، وغوش عتسيون ....» (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ٢٢).

٥ ــ تنسحب اسرائيل من المناطق المكتظة بالسكان العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتعهد بها إلى إدارة أردنية (التقاسم الوظيفي) وتكون هذه المناطق منزوعة السلاح.

٦ ــ المستعمرات اليهودية في الضفة وغزة الواقعة خارج المنطقة الامنية، يتم ضمان سلامتها وأمنها في اتفاق مع الأردن، تبقى تحت السيادة الأردنية، وبامكانها التصويت للكنيست في اسرائيل (انظر نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ١٩٤).

برز موقف رابين كوزير للدفاع في مواجهة الانتفاضة بأنه صاحب القبضة الحديدية وصاحب موقف «لا نملك سوى خيار قمع التمرد. والفلسطينيون سيتعبون اولاً» (هارتس ٨/٢/٨٨) و «لا وجود للحل المعجزة: سيتمكن الجيش الاسرائيلي من إعادة الهدوء حتى ولو احتاج ذلك إلى مزيد من الوقت» (Le Monde 11-3-88, p. 3)، ويتنبأ بعض المراقبين بأن يكون هذا الموقف، وهو الأقرب إلى موقف الليكود الأكثر شعبية في اسرائيل، سلاح رابين وعدته في منافسة بيريز على زعامة الحزب عشية انتخابات الكنيست المقبلة.

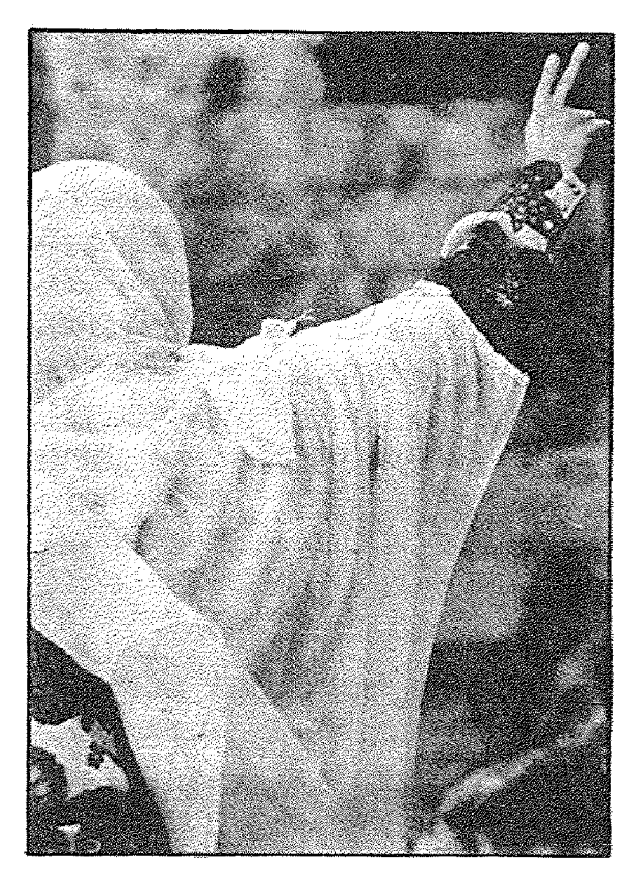
ومهما يكن، فإن اسحاق شامير يتساءل بحق: «لماذا يعمل بيريز على بلبلة العقول؟ إذ لا توجد فوارق كبيرة في مواقفنا [الليكود والعمل]: هم ونحن نؤيد إعادة النظام في المناطق إلى نصابه بالقوة. هم ونحن لن نسمح بخروج العرب من هذه المواجهة بمشاعر الانتصار. كلانا يعتقد انه لا يجوز قيام دولة فلسطينية. ولن يتخلى عن القدس. وكلانا يعتقد انه لا يجوز الحوار مع عرفات، وان الجيش الاسرائيلي يجب ان يتمركز على نهر الأردن. إذن ما هو الفارق بين الحل الوظيفي الذي يؤيده بيريز وبين الإدارة الذاتية التي يوافق عليها شامير؟ والمقصود بكلتا المقاربتين حل للسكان من دون التخلي عن الأرض» (يوئيل ماركوس ــ هارتس ٢٢/١/١٩٨٨).

ثانياً: الرأي العام

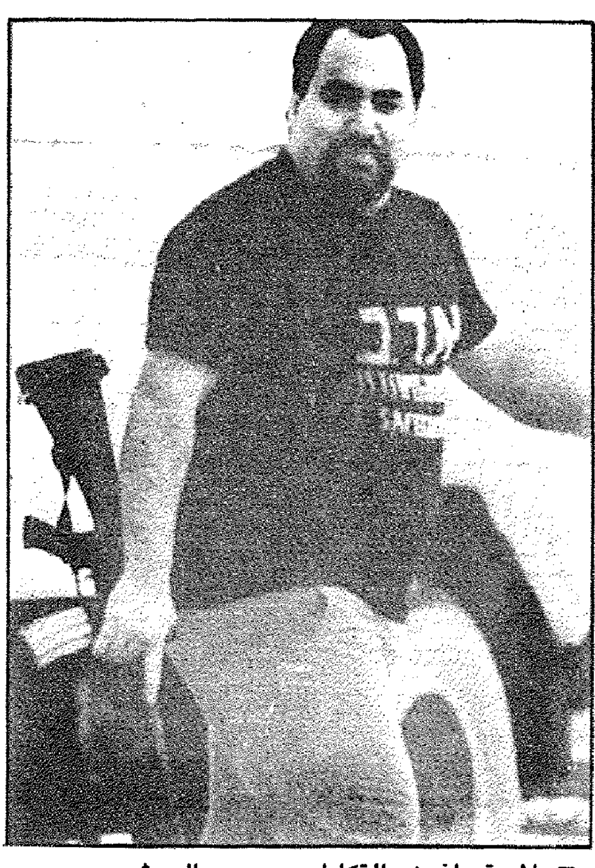
على هامش القوتين الرئيسيتين اللتين تتقاسمان بالتساوي تقريباً السلطة والمعارضة في آن معاً، حتى كاد أن يكون موشيه شامير زعيماً للمعارضة عندما كان نائباً لرئيس الحكومة بيريز ووزيراً للخارجية، منذ نحو سنة ونصف، كما يكاد أن يكون شيمون بيريز زعيماً للمعارضة، وهو يشغل الآن منصب نائب رئيس الحكومة شامير ووزيراً للخارجية. على هامش الحكم اذن يقوم ما اصطلح على تسميته «قوى السلام» في اسرائيل. وقد برز بعضها «السلام الآن»، «ثمة حد» في دور نشيط اعتراضاً على غزو لبنان. ولا نتحدث هنا عن حزب «مابام» الذي يكاد لا يسمع صوته لفرط وهنه، ولا عن «راكاح» و «القائمة التقدمية للسلام» اللذين نعتبرهما تنظيمين عربيين أصلاً، ونعتبر المنضوين فيهما من اليهود خارج اطار الأحزاب والتنظيمات ذات العقيدة الصهيونية.

عرف الشارع الاسرائيلي ولا يزال مظاهرات اعضاء وأنصار «السلام الآن» و «ثمة حد» وقوى السلام الأخرى التي تجاهر بموقفها ضد الاحتلال ومع محاورة م. ت. ف. والوصول إلى تسوية مع الشعب الفلسطيني، كما عرف بالمقابل مظاهرات القوى اليمينية المتطرفة التي اندفعت إلى الشارع دعماً لموقف شامير السياسي، ولموقف الجيش القمعي.

وتشهد اسرائيل نشاطات أخرى مناهضة



□ نصر.. لا بد ات.



□ المستوطنون: التكامل مع دور الجيش.

للقمع الذي تمارسه قوات الاحتلال. نذكر منها زيارة ٢٠ أديباً وكاتباً اسرائيلياً مخيمات اللاجئين في قطاع غزة، اصدروا في أثرها بياناً نشرته صحيفة يديعوت احرونوت في ١٠ كانون الثاني / يناير الماضي وجاء فيه: «شاهدنا جنوداً يخنقون حياً بكامله بقنابل الغاز المسيل للدموع. وفي المكان الذي يسمى مستشفى شاهدنا فتى اقتلعت عينه برشق رصاصي مطاطي، وفي جباليا شاهدنا جمهوراً مصدوماً، غاضباً، مضروباً، ومهاناً. سمعنا باعتقالات جماعية واستمعنا إلى وصف مفصل (...) لضرب المعتقلين، ولتأخير العلاج الطبي» «لا نستطيع إلى ما لا نهاية اضطهاد شعب يناضل من أجل حريته (...) وينبغي أن نأخذ بالاعتبار هذه الحقيقة التاريخية» (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ١٩ - ٢٠).

ونشرت جماعة تتكون من خمسمائة عالم نفساني وطبيب اخصائي في علم النفس بياناً حذرت فيه من الانعكاسات الخطرة لاستمرار القمع في المناطق على الجنود والمجتمع الاسرائيلي عموماً ودعت إلى «وضع حد لاستمرار فرض السيطرة والاحتلال على شعب آخر» (عال همشمار ١٩٨٨/١/٢٩).

ونشر ٦٠٠ استاذ في جامعات القدس وتل ابيب وحيفا وبئر السبع بياناً بعنوان: «السيطرة المفروضة بالاكراه والمستمرة في المناطق تعرض دولة اسرائيل للخطر» (ملحق هارتس ٨٨/٢/٥).

ووقع طلاب في جامعة تل أبيب عريضة تعهدوا فيها بعدم الخدمة العسكرية في الضفة وغزة، وبعدم شراء منتجات مصنوعة في مستوطنات المناطق المحتلة (صحيفة الموند دبلوماتيك آذار ١٩٨٨ ص ١٧).

ولابد من الاشارة، لدى عرض مواقف الرأي العام الاسرائيلي نحو الانتفاضة ، إلى الحيز الكبير الذي خصصته الصحافة الاسرائيلية وتخصصه يومياً لمتابعة أبناء الانتفاضة ونشر المقالات التحليلية لتطوراتها. وتتسم هذه المتابعة، مع الانتفاضة وضدها، بحيوية نخجل ان نقول انها تفوق مستوى ردود فعل اجهزة الاعلام العربية نحو الحدث نفسه.

تمارس السلطات الاسرائيلية رقابة امنية على الصحافة بصورة روتينية، ومع ذلك، شعرت هذه السلطات في وقت من الأوقات ان الصحافة «تشتط» في ابراز احداث الانتفاضة، فدعتها إلى «التحلي بالمسؤولية» واغلقت صحيفة درش هانيتزوتس التي تصدر بالعبرية والعربية في القدس. وأخفى التلفزيون الاسرائيلي صوراً من الانتفاضة اثارت اهتماماً واسعاً في اوساط الرأي العام العالمي (المصدر نفسه).

وأقامت مجموعة من المصورين معرضاً عن الانتفاضة في القدس ورفعت شعارات تدعو إلى وقف التدابير المتخذة في المناطق المحتلة. ومن هذه الشعارات: «لقد حمل جنودنا على تنفيذ اعمال غير اخلاقية وغير مشروعة» (المصدر نفسه).

ينقسم الرأي العام الاسرائيلي ، بحسب احد ابرز الباحثين الاسرائيليين ، يورام بيري، إلى ثلاثة اقسام: الذين يؤيدون ضم المناطق المحتلة، والذين يعتبرونها ورقة مساومة ويرون بالتالي الاحتفاظ بها بأرخص ثمن ممكن إلى أن يحين أوان التسوية، أما الذين يرفضون الاحتلال من حيث المبدأ، فهم أقلية ضئيلة ، ربما أقل من ٥٪ (دافار ١٥/١/١٩٨٨).

تذكرنا الخلافات السياسية والنقاشات الصحافية والفكرية (امتحان الادعاء الديمقراطي ومبدئية مواقف قوى السلام) والازمات النفسية والاقتصادية، واحتجاجات الجنود وامتناع بعضهم عن ممارسة العنف ضد شعب آخر، يذكرنا كل ذلك بالتفاعلات المماثلة التي شهدها المجتمع الاسرائيلي في حرب تشرين ١٩٧٣، وحرب لبنان ١٩٨٢.، لكن ما ان تنحسر آثار الهزة التي تصيب المجتمع الاسرائيلي في كل مرة. حتى يعود كل نقاش وكل اعتراض لينضوي تحت سقف ديمومة الدولة ووحدة المجتمع، وتتحول تلك الظواهر إلى «راحة ضمير» لبعض المثقفين الاسرائيليين، وإلى علامات ايجابية يتلقفها الغرب ليؤكد من خلالها انتماء اسرائيل إلى الديمقراطيات الغربية.

ثالثاً. الجيش

يكتسب الحديث عن تأثير الانتفاضة في الجيش الاسرائيلي أهمية خاصة تفوق القطاعات الأخرى من المجتمع الاسرائيلي، للأسباب التالية:

١ ــ ان الدور الذي تضطلع به قوات الاحتياط كجزء رئيسي من هذا الجيش، تجعله، من حيث تكوينه، جيشاً مختلفاً عن الجيوش النظامية. فهذه القوات تستطيع احتلال منطقة مأهولة بالسكان لكنها لا تستطيع الاحتفاظ بها طويلاً لكونها مضطرة إلى العودة إلى مجالات عملها في المجتمع.

٢ ــ ان قوات الاحتياط في الجيش الاسرائيلي، وهي الجزء الأكبر من الجيش العام إلى جانب القوات النظامية، هي مجتمع بكامله داخل المجتمع. فهذه القوات تضم اشخاصاً من جميع الفئات والطبقات، وهي منفتحة يومياً على الحياة المدنية بمختلف قطاعاتها.

٣ ــ هذا المجتمع الاسرائيلي المصغر، هو المكلف بالتعامل المباشر واليومي مع الشعب الثائر في المناطق المحتلة بأسلوب وحيد هو القمع. وسرعان ما يعود هذا المجتمع الصغير لينبث في المجتمع الأكبر، يعود الجندي والرتيب والضابط إلى الجامعة او الحزب أو المدرسة أو المصنع أو الحقل او الوظيفة ، يكتب مقالاً في صحيفة، أو يسير في مظاهرة، أو يوقع بياناً. بل ان هذا الجندي، إذا ما توافر له ادراك ما واقتناع ما، يرفض الخدمة العسكرية ويعلن اسبابه لذلك، مفضلاً عليها المحاكمة والسجن.

هذا الدور الذي يضطلع به الجيش الإسرائيلي في المجتمع كجيش احتياط والحقوق السياسية والمدنية التي يمارسها افراده بصورة طبيعية، وتماسه المباشر بالقمع والضرب والقتل مع شعب يكافح من اجل حقوق مشروعة، يخرج موضوع الانتفاضة (الحق في الحرية وتقرير المصير) من الاطار المغلق (الجيش النظامي) ليصبح موضوعاً رئيسياً للنقاش



□ امرأة تضرب بالمقلاع.

والتـداول في مختلف اوسـاط الرأي العـام وقطاعاته، الأمر الذي سيحدد مستقبلاً مـدى تأثير الانتفاضة في المجتمع الاسرائيلي. وبالتالي مقدار ما ستحق من نتائج : لن يكـون بالأمكان

إخفـاء أشكال القمـع الذي يمـارسه الجنـود والمستـوطنون في المنـاطق، وستؤثـر سيـاسـة الاحتلال في تماسـك الجيش وتاليـاً في وحدة المجتمع.

من هنـا أهمية مـا نقرأ عن جنـود ادلوا بشهادات عن المعاناة التي تسببها لهم المشاركة في الضرب (معاريف ٥/٢/١٩٨٨) وآخرين من المهاجرين الجدد اعربوا عن ندمهم لأنهم هاجروا إلى إسرائيل (معاريف ٢٩/١/١٩٨٨)، وعن ١٦٠ ضابطاً وجندياً من جماعة «ثمة حد» وقعوا نداء بعنوان «اوقفوا الاضطهاد» تعهدوا فيه بعـدم الخدمة في الضفة والقطاع، وحكم على بعضهم

بسبب ذلك بالسجن. وعن الف ضابط بينهم مائة من رتب عالية انتقدوا في رسالة مفتوحة سياسة اسحاق شامير رئيس الحكومة ودعوه إلى اختيار طريق السـلام والتخلي عن فكـرة «اسـرائيـل الكبرى» (صحيفة الموند ١١ آذار ١٩٨٨ ص ٣).

في وصف هـذه الحـالة، يقـول الصحـافي الاسـرائـيـلي مـاتـي غـولان (هـارتس ٨/١/١٩٨٨):... قبـل ان يتمكـن هـؤلاء «المجندون الصغار في السن» من «التعود على حقيقة كونهم مقاتلين، وحتى قبل ان يشعروا بـأنهم اصبحوا رجـالاً بـالفعـل، يصلون إلى المناطق، ويتجولون في أزقة نابلس وجنين ورام الله وبيت لحم، تائهين مذهولين. لا قتال في الليل والنهار، لا احتلال اهداف، لا يوجد امامهم جنود ولا حتى مخربون. العدو اطفال ونساء ، لا يمسكـون بأيـديهم بنادق ورشـاشـات وإنمـا

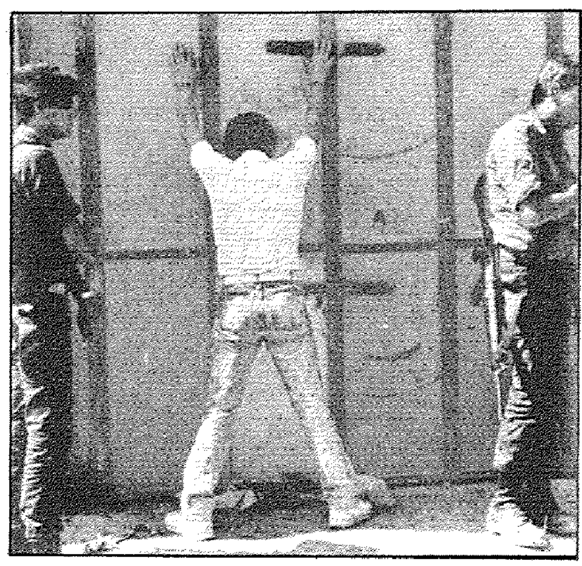
حجارة».

ونقلت هارتس ١٩٨٨/٣/١١ عن إسحاق رابين قوله ان بعض الجنود والضباط الذين يخدمون في المناطق ابلغوا اليه في احاديث دارت معهم، ان النشاط الذي يمارسونه صعب عليهم جداً، وقد سئم الكثيرون من مطاردة الاطفال راجمي الحجارة. وروى رابين ان الكثيرين من الجنود يحتجون على المطاردات واعتقال الاطفال والتحقيق معهم.

ويذهب الباحث الاسرائيلي يورام بيري إلى ان النظرة في المجتمع الاسرائيلي إلى العرب (صراصير سامة، العربي الجيد هو العربي الميت، لا يستحقون الديمقراطية، استخدام العنف ضدهم مشروع) وممارسة الجيش في المناطق دور جيش احتلال في مواجهة حرب ثورية Une guerre revolutionnaire، يهيئان لنشوء مناخ جنوبي افريقي في اسرائيل.

ويعتقد بيري أيضاً ان الجيش الاسرائيلي سيضطر، في مواجهة حرب ثورية، إلى تطوير عقيدة عسكرية ـ سياسية، أي تسييس الجيش والتدخل في المجال المخصص للقيادة السياسية، وبالتالي الصدام مع رجال السياسة: إذا انتهج (الجيش) اسلوباً معتدلاً ينتقده المتطرفون من السياسيين، وإذا انتهج اسلوباً عدوانياً عنيفاً ضد الثوار، ينتقده المعتدلون. وهكذا يصبح الجيش طرفاً ينقسم الجمهور بشأنه، وليس عاملاً وطنياً جامعاً وموحداً في المجتمع . وقد يؤدي ذلك إلى تمرد الجنرالات على رجال السياسة، فالجيوش المتورطة في حروب سياسية تميل إلى جعل نفسها الهيئة السياسية المقررة. وهذا الوضع يفقد الجيش لحمته الداخلية ويهدد بانهيار قوته العسكرية.

ويضيف بيري ان الجيش الاسرائيلي تجنب خلال عشرين عاماً مصائر جيوش الاحتلال على الرغم من الحكم العسكري الذي فرضه على السكان العرب لاسباب ثلاثة: مستوى الشرعية العالي في المجتمع الإسرائيلي لوجود الجيش في المناطق، مستوى المقاومة المنخفض للسكان المحكومين، استخدام اجهزة متطورة



□ جنديان.. لكل أعزل..!



□ حقد دفين...!

لتخفيف حدة الاساءة التي يسببها الاحتكاك المباشر. وقد حطمت الانتفاضة الآن هذا الوضع. والجيش مستعد للمضي في قمع الانتفاضة ما دام هناك أفق سياسي للحل. وإذا اتضح خلال الاشهر المقبلة ان لا حل سياسياً، فسينشأ وضع جديد. وهنا يذكر بيري بالضغط الذي مارسه الجيش على رجال السياسة الاسرائيليين للانسحاب من لبنان.

ويعتقد بيري ان الجيش الاسرائيلي سيتخذ خلال الأشهر المقبلة تدابير متنوعة لاخماد الانتفاضة. أما إذا استمرت حتى موعد انتخابات الكنيست في تشرين الثاني / نوفمبر المقبل، فسيكون الوضع امام ثلاثة احتمالات:



ـــ اما ان ينال المعراخ اكثرية تمكنه من الدخول في مفاوضات تؤدي إلى تنفيس الاحتقان.

ـــ أو ان ينال الليكود اكثرية فيضاعف تدابير القمع، الأمر الذي يهدد بانقسام المجتمع الإسرائيلي، وباحتمال حدوث انقلاب عسكري.

ـــ أو أن تستمر حالة التعادل، فتتشكل من جديد حكومة الرأسين ويستمر العجز عن الخروج من المأزق، مما يهدد بنشوب حرب اهلية عربية ـــ يهودية، ويعزز التعاون بين الحزبين الحاكمين دور الجيش الإسرائيلي كأداة قمع. لكن العالم ـــ يقول ـــ بيري ـــ لن يستطيع أن يظل متفرجاً ولا بد أن يحصل في وقت من الأوقات تدخل خارجي يضع حداً لهذا الوضع. (انظر نشرة م.د.ف. ١٩٨٨، ص ٢٠٧ ـــ نقلاً عن دافار ١١ و ١٣ و ١٩٨٨/٣/١٤).

هل ذهب بيري بعيداً في استنتاجه : دولة على غرار جنوب افريقيا؟ انقلاب عسكري؟ حرب اهلية عربية ـــ يهودية؟

إن أهميـة الانتفـاضـة هـي انهـا تضـع اسرائيل حقاً امام الاسئلة الصعبة: فالاستمرار في حكم مليونين من العـرب بالعلاقة بين المستعمِر والمستعمَر وبالمفاهيـم النى أشرنا إليها اعلاه، ستحول اسرائيل اكثر فأكثر إلى دولة تمييـز عنصري على غرار جنـوب افريقيا. ومن الجهة المقابلة، فإن العودة إلى حدود ما قبل حـرب ١٩٦٧ وقيام دولة فلسطينية هـو فعلاً مشروع حرب اهلية يهودية ــ يهودية ، بل هو فعلاً بداية انهيـار المشروع الصهيـوني وبدايـة النهايـة لاسرائيل.

ولا بد لإسرائيل إذن من أن تختار الحل الأقل كلفة بالنسبة إليها: قمع الانتفاضة مستفيدة من التقاعس العربـي من جهة، ومن بطء التحرك الدولي من جهة ثانية.

ويصل بنا هذا الى الخلاصات التالية:

خــلاصــات:

١ ــ إن اسرائيل لم تستنفد بعد كل مـا تستطيع تجنيده لقمع الانتفاضة والقضاء عليها، وهـي المعتدة بإمكانـاتها وقدراتها على ابتداع اساليب القتال وتطوير السلاح اللازم لكل ساحة من ساحـات الصراع، وهـي التي تملـك الخبرة والتجربة الطويلة في تزويد أنظمة القمـع في بلدان افريقيا واميركا الجنوبية بمختلف انواع الاسلحة اللازمة لمواجهة حركات التحرير بالإصالة عن نفسها احياناً، وبتوكيل من الامبريالية الاميركية احياناً أخرى.

٢ ــ تنبغي المبـادرة إلى مـد الانتفـاضـة بمختلف اشكـال الدعـم المـادي والسيـاسي والاعـلامي والعسكري ، لتمكينها من الثبـات والاستمرار وتطوير اساليب النضال والصمود. وينبغي في هذا الصدد ان تبادر القوى الوطنية والاسلامية عـلى ساحـة الجنوب اللبنـاني إلى التنسيق مـع قيادات الانتفاضة لتوسيع رقعة المجابهة وانهاك قـوى العدو المضطرة في مثل هذه الحالة إلى تعبئة وتجنيد المزيد من قوات الاحتلال، بكـل مـا يثير ذلك من ارباك للساحة الداخليـة الاسـرائيليـة وتكبيدهـا خسـائـر اقتصادية لا تقوى على تحملها وقتاً طويلاً.

ويستدعـي ذلك تغليب الاساسي على الثانوي في علاقات القوى الوطنية بين بعضها البعض وبينها وبين القوى الإسلاميـة العاملة في ساحة المقاومة في الجنوب.

٣ ــ ان ذلك لا يعني ان تستمر الانتفاضة لوحدها في صراع قومـي غير متكافـىء القـوى ، ان وضـع طاقـات هذا الجزء الصغير من الشعب الفلسـطيني في مـواجهـة امكـانـات الجبـار الاقليمـي ــ الإسرائيلي، والجبـار العالمـي ــ الاميركي، مجتمعة، لهـو ظلم فادح لهذا الشعب العربي المكافح. فالمعركة مـع اسرائيل وحليفتها الكبرى الولايات المتحدة الأميركية، ذات طبيعة قومية، وتحتـاج إلى كل امكانات الشعب العـربي وطاقاته البشرية والمادية.

٤ ــ ان الدور الرئيسي للانتفاضة المستمرة والمتصاعدة هـو ان تفجر من جهة الصراعات والتناقضات في المجتمع الاسرائيلي، وان تثور من جهة ثانية امتدادها الفلسطيني الخارجي وبيئتها العربية، فتلملم حركة التحرر العربية اشلاءها وتستنهض ما تبقى من طاقاتها وامكانـاتهـا، وتضـع برنامجاً نضالياً يهتدي بدروس المرحلة السابقة ويكون على رأس اولوياتـه :القضاء على مؤامرة تقسيم لبنان وإعادة توحيده وطناً لبنانياً عـربياً ديمقـراطياً ، وإعـادة بنـاء التحـالف السـوري ــ الفلسطيني عـلى اسس نضاليـة واضحة ومحددة، وانهـاء الحرب العـراقية ــ الإيرانية، واستعادة مصر من كامـب ديفيد.

كم من الانتفاضات العربية سنحتـاج قبل بلوغ ذلك؟ ■

(*) لا تتناول هذه القراءة الجانب الاقتصادي من تاثير الانتفاضة في اسرائيل.

(عن مجلة «الكرمـل» التي تصدر في باريس ــ آذار ــ ١٩٨٨)





يا تلاميذ غزة.. علّمونا
بعض ما عندكم، فنحنُ نسينا
علّمونا.. بأن نكون رجالًا
فلدينا الرجالُ، صاروا عجينا
علّمونا كيف الحجارةُ تغدو
بين أيدي الأطفال.. ماساً ثمينا
كيف تغدو درّاجةُ الطفلِ لغماً
وشريطُ الحرير.. يغدو كمينا
كيف مصّاصةُ الحليب.. إذا ما
اعتقلوها.. تحوّلتْ سكّينا..

* * *

يا تلاميذ غزّةٍ.. لا تُبالوا
بإذاعاتنا.. ولا تسمعونا..
إضربوا.. إضربوا.. بكلِّ قواكم
واحزموا أمركم، ولا تسألونا

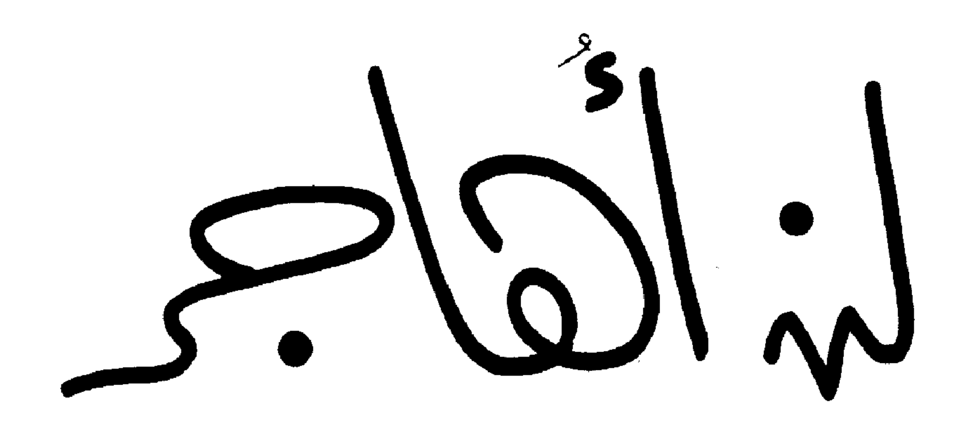
نحن أهل الحساب، والجمع والطرح
فخوضوا حروبكم، واتركونا
إننا الهاربون من خدمة الجيش..
فهاتوا حبالكم، واشنقونا..
نحن موتى، لا يملكون ضريحاً
ويتامى، لا يملكون عيونا
قد لزمنا جُحُورنا.. وطلبنا
منكم، أن تقاتلوا التِنّينا
قد صَغُرنا، أمامكم، ألفَ قرنٍ
وكبرتم، خلال شهرٍ، قرونا

* * *

يا تلاميذ غزة.. لا تعودوا
لكتاباتِنا، ولا تقرأونا..
نحن آباؤكم.. فلا تُشبِهونا
نحن أصنامكم.. فلا تعبدونا
نتعاطى القاتَ السياسي.. والقمعَ..
ونبني مقابراً وسجونا
حرِّرونا من عُقدة الخوفِ فينا
واطردوا من رؤوسنا الافيونا
علمونا فن التشبُّث بالأرضِ،
ولا تتركوا المسيح حزينا
يا أحباءنا الصغارَ.. سلاماً
جعل اللّهُ يومَكُمْ ياسمينا
من شقوق الأرضِ الخرابِ طلعتم
وزرعتم جراحنا نسرينا
هذه ثورة الدفاتر.. والحِبر..
فكونوا على الشفاه لُحونا
أمطرونا.. بطولة وشموخاً
واغسِلونا من قبحنا.. إغسِلونا
لا تخافوا موسى.. ولا سحرَ موسى
واستعدوا لتقطفوا الزيتونا
إن هذا العصر اليهودي وهْمٌ
سوف ينهار، لو ملكنا اليقينا

* * *

يا مجانين غزةٍ.. ألفُ أهلاً
بالمجانين.. إن هم حرَّرونا
إن عصر العقلِ السياسي.. ولّى
من زمان، فعلِّمونا الجنونا
جنيف ١٩٨٨/١/٢١





ملاحظة المحرر: **كتب هذه القصيدة** احد كبار شعراء الأرض المحتلة، وقد وصلتنا من داخل السجن الكبير، سجن الاحتلال الذي يقبع فيه شعبنا الأبي. وسنحجب اسم الشاعر لأسباب لا تخفى على احد.

يا عدوي... أي حقد لك في نفسي... وهزء!!
لا تصدق أبداً أن لجرحي أي برء
غير قتلي لك ثأرا لدمي هذا ورزء
أنت مني اليوم اقوى.. سيد، في كل شيء
وأنا الأقوى بشيء.. هو اني لن اهاجر!

* * * * * *

انا باق.. فوق أرضي حبها من كل قلبي
فانعم اليوم بقتل أنت يا عات ونهب
لك ما شئت.. فلن اشكو! ولكن انا حسبي!
انني أترك امري.. لظروف ولربي
وحسابي احسبه واقنع. انا يوماً لن اهاجر

** ** **

راسخ الأركان.. لا أهتز.. طود.. كل وقتي
شامخ أعرف ما حولي.. وما اجمع تحتي
كل نار..! فتوقع أنت مني كل موت
ودويا كل يوم يسمع العالم.. صوتي
أنني الصامد.. لا تحلم بأني سأهاجر..!

** ** **

أنبش الأرض وعني أنت حاول كل بحث
أنت في عنفك هذا مد أصرار وحث
بي على قتلك أني كنت قتلاً دون ريث
انا بعث.. ولكل العرب هذا البعث (بعثي)
لاجئاً ما عدت فاسمعني.. ولا عدت مهاجر

** ** **

اغلق الشارع وأمسك كل (صرصور) و (جرذ)
هكذا نحن لدى الحقد بتصنيف ونبذ
أطلق النار وخذ حذرك مني كل أخذ
وعلى الرأس وقل أنت على (رجل) و (فخذ)
وأنا مع كل هذا، يا عدوي لن أهاجر

** ** **

طارد الصبيان في كل زقاق وممر
ظل طول الليل معهم انت في كر وفر
سد سدا كل بوابة حي.. ومقر
أنت مهما كنت أو حاولت لن توقف سيري
أنا حر.. وتأكد إنا يوماً لن أهاجر

** ** **

أنت بالرشاش ليث الغاب.. (طز) الف (طز)
وانا الاعزل رفعي ليدي كاف وقفزي
هي للقنبلة اليوم.. بزلزال.. وهز
وهي للهام غدا.. تحتار في حز وجز
من هو الليث؟ انا الليث واني لن اهاجر

يا عدوي، الحال كم تبقى على نحس وتعس
يا عدوي، هل تظن اليوم يبقى مثل امس
او غداً تحسب لا يقلب من رجل لرأس؟
أو لم أقو بايماني على روم وفرس؟
وأنا ذا اليوم أقوى..! كيف يا ذئب أهاجر؟

** ** **

يا عدوي، أنت لن تأخذ غير الموت مني
أينما رحت.. انا معك رفيق مثل جن
لا تراني.. فتحدث لجميع الخلق.. عني
انني الموت.. واني.. ولأني.. وبأني...
يا عدوي، أأنا تطلب مني ان اهاجر؟

** ** **

أ ـ هدفي أنت.. ودوما هدف انت بوجهي
ب ـ ليس ما يعجزني عنك ولا يوماً سيلهي
ج ـ يا عدوي، انت كم للضرب تغري وتشهي!!
د ـ آفة أنت واني آفة الدهر سأنهي
هـ ـ يا عدوي، انت ووعيدي وعندي.. لن اهاجر

** ** **

يا عدوي، ليس لي غيرك حقاً بعدو
بدم معك حساباً وحساباً سأسوي
فببحر.. انا سوف القاك وبر.. ثم جو
يا عدوي، انا بركان.. ويوماً سأروي
سوف افنيك وإلا أنت هاجر!

** ** **

أهرب الآن! ولا تسمع.. لأي ولأي
انج.. أسرع..! واعتمد أي طريق.. أي جري!
يا عدوي، لا تعاند ابداً وأعمل برأيي
أن يومي ليس يصغي.. لأبي وأخي!
أنا لا ارحم! هاجر ويك يا ابن القهر هاجر!

«الدستور» الاردنية ١٩٨٨/١/١

● كلانا على دين به هو مؤمن ولكن خذلان البلاد هو الكفر
«؟» عربي

ثـــورة الحجـارة

هارون هاشم رشيد

(١)

لـم يبـق غـيرك لي يـا ايـهـا الحجـر
فقـد تخلـت جمـوع احجمـت زمـر
عشرون عـامـا.. واني في انتظـارهمـو
تجـذرا في تـرابـي يشمـخ الـعمـر
عشرون عـامـا.. ورايـاتـي مخضبـة
بـالـدم، شرفـهـا ابطـالنـا الـغـرر
قـدمـت مـا بخلـت ام ولا ولـد
ولا تخلـف شيـخ او كبـا نفـر
قـاتلـت.. اول مـن دوت رصـاصتـه
كنت الفتى يـوم غـام اليـاس والكـدر
والآن هـذا انـا بـالصـدر منتصـب
وبـالحجـارة.. لا خـوف.. ولا حـذر
يهمي الـرصاص.. فما ترتـد خطوتنـا
عمـا نـريـد.. ويهمي المـوت ينـهمـر

(٢)

في غـزة الآن هـذا الـزحـف زلـزلـة
تـهـز مـن نكصـوا عنـا ومـن غـدروا
تحـرك الـغـافـل الـغـافي وتـوقظـه
عـلى الـزئـير لاحبـاب بـهـا نفـروا
فالارض جفت، وجف الضرع وانحسرت
شتـى المنـى، وجفـانـا البشر والبشر
البـرتقـال.. لقـد غيلـت مـوارده
وخـربـت. واستبيـح النبت والـزهـر
الاف.. الاف.. اشجـار مقطـعـة
هنـا.. هنـاك رمـاهـا حـاقـد قـذر
مستـوطنـات عـلى انقـاض دارتنـا
يقيمـهـا غـاصـب لـلارض مقتـدر
مطـرودة غـزة الشمـاء غـائبـة
مـقتـالـة في الحصـار المـر تـعتصر

(٣)

قلنـا لهم.. اينهـا «هـانـوي» تـرفـدنـا
بمـا لـديـهـا. وايـن الـدعـم والنـذر
وضفـة النـار. مـازالـت مـؤججـة
مثلـث الـرعـب.. فيـهـا لاهـب خطـر
والقـدس صـاخبـة. تعلـو بصرختهـا
اللـه اكبـر.. فيـهـا هـاتـف عمـر
وفي القيـامـة. والاقصى.. مـواكبنـا
لمـا تـزل. بنـداء الحـق تـاتمـر

(٤)

مـن هؤلاء. عيـون الكـون شـاخصـة
الى فلسطـين. تستقـري وتنبـهـر
لاخـوة في ظـلال القـهـر قـد ولـدوا
وفـوق نـار الاسى والحـزن قـد كبـروا
تطـاولـوا. فـاذا قـامـاتـهم شمخـت
فـوق الـذين تنـاسـوا ذكـرهم هجـروا
اطفـالنـا هـل رايتـم مثـل اعينـهـم
وكيـف منـهـا جـرينـا يـدفـق الشرر
وجـوههم هـل رايتـم اي عـاصفـة
مـن الـوجـوه. تشـق النـار تنتشر
هـي العـروبـة مـازالـت عقيـدتـهـم
قـد علمـوهـا فمـا حـادوا ولا كفـروا
تـاخـر الـدعم عنهم.. غـاب معتصم
لا السيـف لاح. ولا اجنـاده ظـهـروا
عشرون عـامـا همـو في الانتظـار عـلى
مجـامـر النـار مـا ارتـدوا. ولا دحـروا
الـدارعـات التـي في وجـهـهـم نصبـت
كمـا القـلاع تحـدوهـا. ومـا ذعـروا
اطفـالنـا نبـت ارض لا مثيـل لـهـا
تعطي سخـاء اذا مـا اهلـهـا صبـروا
لـهـا تـدفـق وجـدان. وعـاطفـة
مـن هـؤلاء بـه تخضر تـزدهـر
كـانـوا البـراعـم تنمـو تحت لافحـة
من العذاب. وذاقوا الجـوع واصطبروا
وابـدعـوا في صمـود لا مثيـل لـه
هـاتـوا لنـا مثلـه في كـل من غبـروا
وقلبـوا صفحـة التـاريـخ عـلى بـهـا
اسمـا يجـود بمـا جـادوا ومـا سطـروا

(٥)

اسطـورة المجـد. اطفـال الحجـارة في
هـذا الـزمـان الـذي يهـوي وينكسر
اسطورة المجد. مـا جـاد الـزمـان بهـا
جـادت بـه طفلـة في كفـهـا حجـر
اسطـورة المجد. مـا الخنسـاء صـابـرة
فـعنـدنـا الـف خنسـاء لـهـا اثـر
فـهـل رايتـم نسـاء مثـل نسـوتنـا
في كـل مـا خلـد الكتـاب او ذكـروا
وعنـدنـا الـف.. الـف مـن شبيبتنـا
تلفحـوا. بـرداء المـوت واتـزروا

(٦)

اسطـورة المجـد. قـد ردت لامتنـا
نـهجـا بـه تشمـخ الاجيـال تفتخـر
ردت لنـا غـابـة. شمـاء رائـعـة
كـادت وراء ستـار اليـاس تنـدثـر
تقـول دولتنـا. لا بـد قـائمـة
مـن اجلهـا. يـهـدر البـركـان ينفجـر
والقـدس عاصمـة الاحـرار مـذ وجـدت
حـراسهـا نحن.. نحن العسكـر المجـر
تحـركـت مـن ركـام المـوت لـهبتـهـا
وجن فيـهـا اللظـى، واستنفـر الحجـر
وانـه النصر ات تلـك قـولتنـا
فـالليـل، لا بـد هـذا الليـل ينحسر
قـد قـالهـا، الشـاعـر الشـابي من زمن
لا بـد... لا بـد ان القيـد منكسر
وانـه النصر ات لا محـالـة وإن
طـال الطـريق بنـا واستفحـل الخطـر
وانـهـا ثـورة للنصر زاحفـة
مهمـا دجت حـولهـا واسـودت الغـير
فـلا تقـولـوا متى.. هـذي بشـائـرهـا
فمـن هنـاك بهـا قـد جـاءنـا الخبـر

تونس





نشيد الحجارة إلى أطفال فلسطين.. كلّ فلسطين..

سليمان العيسى

لا يمْلكون سوى الحجارةْ...
أطْفالُنا المتشبثون بأرضهم.. وبشمْسهْم
وبزهْـرةِ الـرّمانِ والزيتونِ في أيديهمْ.
لا يملكُون سوى الحجـارةْ..

• • •

يا أيُّهـا ـ الجنرال ـ.. يا منْ يمْتطي دبَّابةً،
ويجـيءُ يحصدُهمْ..
لماذا الذُّعْـرُ؟
أطفالُ الخيام النائمونَ على الطَّوى،
منذُ اغتصبْت طعامهم، وترابهم،
لا يملكُون سوى الحجـارةْ..

يا راكب «الهدَّارة» الصفراء..
نخْلتُنا القديمةُ لم تزلْ تنْمو، وتُرْسلُ طلْعها،
وصغارُنا الْعاشوا..
ومات جدُودُهُمْ في ظلِّهـا..
لا يملكُون سوى الحجـارةْ..

• • •

ما زلْت تسحقُهمْ.. ويحْصُدُهمْ رصاصُك.
أيُّهـا السفّاح!
ثمّ يُفجّرون الأرْض حوْلك فجْأةً..
ويطيرُ لُبُّك منْهُمْ..

لِمَ أَنْتَ مُرْتَعِدُ الفَرَائِصِ مِنْهُمْ؟
تُرغي وتُزْبِدُ حَانِقاً..
لا يَحْمِلُونَ سِوَى الحِجَارَةْ..

● ● ●

أَطْفالُنا المُتَشَبِّثُونَ بأَرْضِهِمْ، وبِشَمْسِهِمْ،
سَيُجَازِفُون ببُؤْسِهِمْ، وخِيَامِهِمْ،
وبِكِسْرَةِ الخُبْزِ التي يَبِسَتْ على فَمِهِمْ،
نَعَمْ..
ويُفَجِّرونَ الأَرْضَ تَحْتَكَ
أَيُّها «الغَبَشُ» الدخيلُ..
ولَيْس في أَيْديهِمْ غَيْرُ الحِجارَةْ..

● ● ●

وبلى وراء «مَقالِع» الأَطْفالِ
جَبَّارُ السماواتِ العُلَى..
وإرادةُ الصَّوَّانِ..
والتاريخُ، والدُّنيا التي وقَفَتْ تُحَيِيهِمْ،
وتَلْثُمُ عُنْفُوانَ جِباهِهِمْ..
وتقولُ..
مَرْحَى لِلْبُطُولةِ..
للطفُولة... للحِجَارةْ

● ● ●

ألعاشِقُون..
ألامَسَتْ يوماً أغانِي العاشقينَ غِلافَ قَلْبِكَ
أيُّها «الغَبَشُ» العتيقُ..؟

ألعَاشِقونَ صِغارُنا..
وعلى الأصابعِ فَجرُنا، ونَهارُنا،
النّابتونَ بكُلِّ فَجٍّ من شقوقِ الارْضِ،
مِنْ جِلْدِ التُّرابِ..
هُمُ الذين سيكتُبونَ الخاتِمةْ
ويُلَقِّنونكَ آخِرَ العِبَرِ العِظامِ القادِمَةْ
ألعاشِقُون.. سَيكتُبون نهايَةَ الصَّلَفِ
المُزَنَّرِ بالرَّصاصِ وبالقنابلِ..
يَهْزِمُونَكَ.. بالحِجَارةْ..

● ● ●

لا يَملِكُونَ سِوَى الحنينِ
إلى تُرابِ جُدُودِهِمْ..
عَتباتِ دُورِهُمُ التي اغْتُصِبَتْ..
وظن الاحمقُ المحتلُّ..
أنَّ حقائقَ التاريخِ تُطْمَسُ بالرصاصَة
ظَنَّ..
وأنتَفَضَتْ .. تُزَلْزِلُهُ،
تقضُّ عليهِ مَضْجَعَهُ الحِجَارَةْ..

● ● ●

أَطْفالُنا.. لَيسُوا على عَجَلٍ..
فَعَبِّىءِ جيداً باقِي رَصاصِك..
وأنزلِ المَيْدانَ..
سوفَ تَراهُمُ أبداً.. هُنالِكَ..
بانتظارِكَ..
عند جِذْعِ النَّخْلَةِ العَاشُوا،
ومات جُدُودُهُمْ في ظِلِّها

سَتَراهُمْ أبداً.. هنالِكَ..
أيها «الغازي» الدخيلُ..
يبارزونك.
يهزموك.. بالْحِجَـارَةْ..

• • •

لَسْنا عَلى عَجلٍ..
فتاريخُ الجريمةِ يَستْطَيلُ.. ويَذْبحُ الأنفاس.
يَقْتَلَعُ الرُؤي مِنْ أعْيُنِ العُشّاقِ..
ثُمَّ تَهُبُّ ريحُ الشَّعْبِ، ريحُ اللّهِ،
والأرض الذبيحةِ.. فَجْأةً..
ويسـجل الْحَجَرُ أنتصِارَهْ..

• • •

إنّـي لألمَحُ في التُّرابِ المُسْتَباحِ
بدايةَ الطوفانِ..
ألمَحُ في حُطامِ السيفِ أُغْنيةً،
أقُولُ: السَّيْفُ لم يَفْقِدْ غرارَهْ..

• • •

يا أرضُ.. يا زِلْزالَنا الآتـي..
اغانـي العاشقينَ قِيَامَةٌ..
وزماننا العـربـي..
قالوا: غارَ.. قالوا: ماتَ
قالوا: هَرَّبُوه.. غَرَّبُوه..
وَنَفْخَةٌ في الصُّورِ..
وانْظُرُهُ يدَمْدِمُ..
نافضاً عنه غُبارَهْ..

• • •

وأضُمُّ أطْفالي.. إلى وَتَري.
وألْتَمِسُ البقايا من نشيدِ الجَمْرِ،
أُهْدِيها إليهِمْ..
أرْسُمُ الألَق العظيمَ على الدُّخَانِ،
اقولُ لِلشُّعَراءِ:
هذا عَصْرُ مَلْحَمَةِ الحِجَـارَةْ..

• • •

هذا زَمَانُ النابتينَ من الرَّمَادِ،
زمانُ أطفالي..
الذين طوتْهُمُ الأنْقاضُ في بَيْرُوت،
في صَبْرا، وشاتِيلا..
زَمانُ القادِمينَ على جَوَادِ المُسْتَحِيلِ..
يُلقِمون الْبَرقَ صعقتَهُ ونارَهْ..

• • •

أبطالُنا المُتشبِّثون بأرضِهِمْ، وبِشَمْسِهِمْ
وبزَهْرَةِ. الرُّمَّانِ والزيتونِ في أيديهُمُ..
لَهُم تُهَيِّء ثَوْبَها القُدْسُ الجريحُ مُطَرَّزاً بالأرْجُوانِ،
وتَسْتَعِدُّ لِعُرْسِها الْعَرَبيِّ..
قالَتْ لي الحِجَـارَةْ..



سمفونية الأرض

د. سعاد الصباح

« ١ »

تلك سمفونية الأرض العظيمة
تتوالى..
تتوالى..
مثل ضربات القدر
مرةً في بيت لحم
مرةً في غزَّة
مرةً في الناصرة
قلبت طاولة الروليت، والخمر، علينا..
سحبتنا فجأة من قدمينا
كنَست في لحظة اسماء كلِّ الزعماء..
أغلقت بالشمع اوكار السياسة
ودكاكين الخدر
ذبحت كلَّ البقر
فاستقيلوا يا كبار الشعراء
ليس للشعر لدينا سادة أو امراء
ان للشعر اميراً واحداً يدعى الحجر

« ٢ »

تلك سمفونية الأرض المجيدة
تتوالى .. تتوالى
مثل ايقاع النواقيس،
وموسيقى القصيدة
تحمل البرق إلينا.. والمطر
أحرقت اوراق كلِّ الأدباء
خلعت اضراس كلِّ الخطباء
صبَّت النفط على لحية كلِّ الخلفاء
ورمتهم في صقر
فافرشوا السجَّاد.. والورد.. لأطفال الحجارة..
واغمروهم بالزهر..
إن اسرائيل بيتٌ من زجاج..
وانكسر..
ها هي الأخبار تأتي.. كالفراشات الينا.
خبراً.. بعد خبر..
حجراً.. بعد حجر..
فعلى أجفاننا قمحٌ، ودفلى. وورود
ها هم اولادنا
يضعون الشمس في اكياسهم
يبدعون الزمن الآتي.. يصيدون الرعود..
ويثورون على ميراث عادٍ.. وثمود..
ها هم اكبادنا..
يقتلون الزمن العبريَّ..
يرمون الوصايا العشر للنار..
ويلغون اساطير اليهود..
رائعٌ هذا المطر..
رائعٌ هذا المطر..
رائعٌ ان تنطقَ الأرضُ.
وأن يمشي الشجر
ها هم ينمون كالاعشاب في قلب الشوارع
ففتاةٌ مثل نعناع البراري
وفتىً مثلُ القمر
ها هم يمشون للموت صفوفاً
كعصافير المزارع
ويعودون إلى خيمتهم دون اصابع
فاتركوا ابوابكم مفتوحةً
طول ساعات السحر
فلقد يأتي المسيحُ المنتظر
ولقد يظهر فيما بينهم
وجه عليٍّ..
أو عمر..
قاومي .. ايتها الأيدي الجميلة..
قاومي .. أيتها الأيدي التي بلَّلها ماء الطفولة
لا تبالي ابداً.. بأكاذيب القبيلة
لم نحرِّر نحن شبراً من فلسطين.. ولكن
حرَّرتنا هذه الأيدي الرسولة..



الغضب الفلسطيني وعبثية النهج الإسرائيلي

مايكل أدامز



منذ حوالي عشرين سنة بالضبط ذهبت إلى مخيم جباليا للاجئين الذي هاجم فيه دايفيد ميلور مؤخراً وسائل الاحتلال الإسرائيلية في قطاع غزة ضقت مثله ــ ليس بسبب السياسة الفاسدة، لكن بسبب الوحشية التي كان الإسرائيليون يعاملون بها اللاجئين الفلسطينيين.

إلى حد ما، كانت الظروف آنذاك مشابهة تماماً لما هي عليه اليوم: كان هناك حظر تجول بالقوة في جباليا ومخيمين آخرين وكانت ناقلات الجيش الإسرائيلي تجول فيهم بسرعة كبيرة وتطلق النار. لكن كان يوجد فارق واحد مهم: لم يكن هناك أية مقاومة ظاهرة، وبالتأكيد لم يكن احد يرمي الحجارة على الجنود الإسرائيلين. لم يكن النجود يطلقون النار بدافع القتل، لكن لارهاب الناس، كان الاحتلال يومها في شهره السابع.

وفي مقال كتبته في ذلك الوقت وصفت القمع وشددت كما فعل ميلور، على ان الإسرائيليين كانوا، بممارساتهم تلك، يتجاهلون مقررات معاهدة جنيف الرابعة التي تنص على سبل معاملة المدنيين الخاضعين للاحتلال.

إن ممارسات الإسرائيليين اليوم عنيفة وغير شرعية بنفس المقدار الذي كانت عليه منذ عشرين عاماً. إن هذه السنوات العشرين تحت الاحتلال، لم تحبط إرادة المقاومة لدى الفلسطينيين. بل شجعتها وحثتها إلى الحد الذي أصبح فيه الأطفال مستعدين لمواجهة الموت بدلاً من الخنوع وهكذا ، فإن الوسائل الإسرائيلية تبدو وكأنها ليست فقط قاسية، بل انها أيضاً تعطي مفعولاً مضاداً.

لكن، إذا كان ما قاله السيد ميلور عن الوضع في الأراضي المحتلة هو صحيح اليوم، لماذا لم يقل ذلك من قبل وبنفس الوضع؟ فلو كان ذلك قد حصل، لو كان الجميع قد اتخذوا موقفاً واضحاً عام ١٩٦٨، عندما بدأ يظهر أن الإسرائيليين كانوا لا يحترمون واجباتهم كقوة محتلة، لما كان الموقف في فلسطين قد أصبح يائساً كما هو اليوم.

وكما اظهر ارنولد توينبي في مقدمته لـ «تحول فلسطين» عام ١٩٧١: «في فلسطين، الحق والباطل واحد كما في أي مكان آخر. إن ما يميز القضية الفلسلطينية هو ان العالم اصغى إلى الفريق الذي قام بالهجوم واعطى الضحية اذناً صماء».

لو اعطي صوت الضحية فرصة متساوية لقال شيئاً من هذا القبيل: «عندما اتيتم إلى فلسطين كفاتحين عام ١٩١٧، قلتم انتم البريطانيون انكم تريدون اقامة «موطن» لليهود فيها، لم تطلبوا موافقتنا، لكنكم وعدتم بأنكم ستحمون حقوقنا، حقوق الفلسطينيين الذي كانوا يشكلون تسعين بالمئة من السكان. وعلى امتداد الثلاثين سنة التالية رددتم ذلك الوعد، مصرين على عدم وجوب جعلنا رعايا دولة يهودية ضد مشيئتنا.

«واليهود ايضاً أعطوا وعوداً. قالوا انهم لا يريدون أن يحكمونا، لكنهم استغلوا كرمكم وعدم خبرتنا لاقتلاعنا من ارضنا عن طريق مناورات سياسية حيناً وعن طريق العنف حيناً آخر إلى ان تمكنوا

عام ١٩٦٧ من احتلال فلسطين كلها بالقوة. وما زلتم تعطون وعودا تفيد بأنكم ستحمون حقوق الفلسطينيين، لكنكم تخلون بها دائماً حتى اصبحنا شعباً صغيراً متروكاً لرحمة هؤلاء الغرباء الذين سرقوا حق مولدنا والذين، إذا اعترضنا، يضربوننا ويطلقون النار على اطفالنا ويرسلون زعماءنا إلى المنفى، وانتم في الغرب تبدون عاجزين عن كبحهم، علماً بأننا لم نلحق اي اذى لا بكم ولا باليهود.

«ماذا تتوقعون ان نفعل؟ لقد خسرنا كل شيء: نصف شعبنا في المنفى ، ومن بقي — على رغم وعدكم — هم الآن رعايا دولة يهودية على رغم مشيئتنا. اين عدلكم ولماذا تكلمونهم بتهذيب وترفضون مكالمتنا؟».

ليس من المدهش ان يفاجأ الإسرائيليون إذا وجدوا انفسهم يهاجمون، وهم الذين سمح لهم كل هذا الوقت بأن يتصرفوا كما يحلو لهم في الضفة الغربية وقطاع غزة، فعندما كان مجلس الأمن او الجمعية العمومية في الأمم المتحدة يعمدان إلى اتخاذ قرارات تدين ممارسات اسرائيل كثيراً ما كان المندوب البريطاني يؤمر بالامتناع عن التصويت، فيما كان الاميركيون ينطلقون، عادة ، للدفاع عن إسرائيل ولنقض اي قرار ضدها إذا لزم الأمر.

صحيح ان الوضع تحسن في ما يتعلق* ببريطانيا — وان لم يكن ذلك صحيحاً بالنسبة إلى الولايات المتحدة — وذلك منذ عام ١٩٨٠ عندما أصدرت الأسرة الأوروبية اعلان البندقية الذي يدعو إلى حق تقرير المصير للفلسطينيين. لكن عندما اشاحت حكومة ريغان بوجهها عن حق تقرير المصير وعارضت بالفعل أي اعتراف بحقوق الفلسطينيين، بتأثير من اللوبي المؤيد لإسرائيل والذي حضها على ذلك، لزمت حكومتنا الصمت بكل بساطة.

قبل ان يتكلم دايفيد ميلور، ومع مساندة حازمة من قبل الحكومة البريطانية، كانت الحكومات البريطانية المتعاقبة، إن كانت من حزب العمل أو من حزب المحافظين عندما تحرج، تعرب عن استنكارها، إنكار إسرائيل، حقوق الفلسطينيين، ورفضها مقررات الأمم المتحدة المتكررة، وكان ذلك صوتاً منعزلاً دائماً كونها لم تكن تقوم بأية محاولة لإعطاء استنكارها مفعولاً خاصاً.

وفي الواقع انه، عبر قبولنا بتحدي الحكومة الإسرائيلية للقوانين الدولية وعدم احترامها للقيم الانسانية ، شجعنا العنصر المتطرف في إسرائيل..فمنذ ان احتلوا الضفة الغربية وقطاع غزة قبل عشرين سنة، لم يكن الإسرائيليون متأكدين مما سيفعلون بهما، وقد اختبروا الأمر عبر انشائهم فيهما مستوطنات يهودية عدة، وعندما لم يبد أحد أي اعتراض جدي امتلكوا مساحات شاسعة من الأراضي العربية في الضفة الغربية. وبما انهم لم يلقوا سوى اعتراضات تافهة ضموا القدس العربية ومرتفعات الجولان ورحلوا من الفلسطينيين أولئك الذين يبدون أدنى معارضة. كما كانوا، بالوقت نفسه، اللاجئين الفلسطينيين باستمرار وقاموا أخيراً باجتياح لبنان، الذي كان بمثابة مصيبة لجميع الفرقاء وللإسرائيليين أنفسهم بنفس المقدار.

إن الهدف الثابت للحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، وعبر اتباعها هذه الممارسات الهدامة والمرعبة، هو القضاء على المقاومة الفلسطينية وحرمان الفلسطينيين من أي امل بإنشاء موطن له حكومة من اختيارهم في فلسطين..وهناك الآن العديد من الإسرائيليين وأكثر منهم من اليهود خارج إسرائيل من يرون انه لمن العبثية الاستمرار على هذا النهج. وإذا كان دايفيد ميلور، عندما تكلم، اعطاهم بعض التشجيع، فإنه يكون قد اسدى لإسرائيل وللفلسطينيين، على حد السواء خدمة مهمة.

(عن صحيفة «اندبندنت» البريطانية ٨٨/١/١٨ نشرت في جريدة «السفير» بتاريخ ٨٨/١/٢٨)



إنهـا إشارة الإنطلاق ... فالفلسطينيـون لــن ينتظـروا ٢٠ سَنــة أخـرى

قسطنطيــن غـايفـاندوف

يبدو من أخبار وكالات الانباء ان إنتفاضة الفلسطينيين في الضفة الغربية من نهر الأردن وقطـاع غزة المحتلين مستمرة وتتخذ طابعـاً منظمـاً. وهذا لا ينسجم مـع تأكيدات القادة الاسرائيليين على ان الوضـع هناك اصبـح «طبيعيـاً». وفـوق ذلك، ان سلطـات الاحتلال تتوسـع في استخدام القوة العسكرية في الأضطرابات التي اججتهـا، كما هـو واضـح من تصريحات رئيس الوزراء شامير حـول تصميمـه عـلى إشاعة «القانون والنظام» باستخدام «القبضـة الحديدية».

كان من يحـاول إدراك ما تعنيه تل ابيب بعبارة «القانون والنظام» بعد ٢٠ سنة من السيطرة على الأراضي الفلسطينية المحتلة لابد وان يتوصـل إلى الاستنتـاج الآتـي الذي توصلـت إليه صحيفـة «واشنطن بوست»: مطالبة العرب بقبول سيطرة إسرائيل الدائمة على الأراضي المحتلة اي الأسلوب الذي يؤدي إلى مزيد من الاضطرابات وإطلاق النار، إلى مزيد من النفي والاعتقالات الجديدة وإلى مآس جديدة.

اثارت أعمال القمـع الإسرائيلية غضباً في جميـع انحـاء العالم. وليس مصادفة أن مجلس الأمن الدولي اجتمع للمرة الثانية خلال الشهر الحـالي واتخذ قراراً بالاجماع يتضمن دعوة اسرائيل بالامتناع عن انتهاك القوانين الدولية، كإبعاد الفلسطينيين من الأراضي المحتلة. وأشار مجلس الأمن إلى ضرورة التزام تل أبيب باتفاقيـة جنيف لعام ١٩٤٩ الخاصة بحماية السكان المدنيين اثناء الحرب، وأكد على ان هذه الاتفاقية تنطبق تماماً على الوضـع في المناطق المحتلة.

وينبغي القول إنه بالنسبة للمسائـل المتعلقة بعدوان اسرائيل ضد جاراتها، فإن مجلس الأمن الدولي لديه الكثير مما يفعله في هذه الأيام. فما أن انتهي من مناقشة الوضـع في الضفة الغربية من نهر الأردن وقطـاع غزة، حتى جاء دور لبنان الذي طالبت حكومته باتخاذ اجراءات عاجلة لوضـع حد لأرهاب تل أبيب في الجنوب اللبناني المحتل. ومن المعروف انه على الرغم من سلسلة من القرارات التي اتخذها في عام ١٩٧٨ مجلس الأمن وطالب فيها بانسحاب القوات الاسرائيلية على الفور من أراضي لبنان، فإن اسرائيل لا تكتفي بالاستمرار في احتلال جزء من أراضي هذه الدولة، بـل وانها حولته إلى قاعدة لاعمالها العدوانية. فخلال العام المنصرم فقط شن الطيران الإسرائيلي ٢٣ غارة جوية على المراكز السكانية الآمنة ومعسكرات اللاجئين الفلسطينيين والتي اسفرت عن مقتل ١٠٥ وجرح أكثر من ٢٥٠ مواطناً.

هذه المضاعفات المأساوية لفتت مجدداً انتباه الرأي العام العالمي إلى ان الأزمة العربيـة ـــ الإسرائيلية لا تزال بدون حل حتى الآن، وخصوصاً جوهرها المتلخص في المشكلة الفلسطينية، هي أشبه ببرميل بارود مربوط بفتيل جاهز. بعض المحللين الاميركيين استعجلوا جداً حين حاولوا تأويل قرارات قمة عمان الأخيرة بمـا يوحـي بأن هذه المشكلة قد تراجعت الآن إلى المرتبة الثانية ، أما حجم فعاليات الفلسطينيين وجرأتهم في الأراضي المحتلة والذين يكافحـون غير مسلحين ضد المحتلين المسلحين، إنمـا يثبت مجدداً ان «القبضــة الحديدية» لــن تحل المشكلة.

والتسوية العادلة لمشكلة الشرق الاوسط بالوسائل السياسية ودعوة المؤتمر الدولي برعاية الأمم المتحدة لهذا الغرض وبمساهمة جميـع الاطراف المعنية لا يقـف امامها في الوقت الحاضر سوى الولايات المتحدة الاميركية وإسرائيل وفي قمة عمان الأخيرة اعلـن المشاركون فيها انهم يقبلون بجميـع قرارات الأمم المتحدة، بمـا في ذلك القراران ٢٤٢ و ٣٣٨ الصادران عن مجلس الأمن الدولـي، وذلك كأساس لتسوية الأزمة العربية ـــ الإسرائيلية.

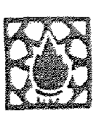
وإذ اقرأ اليوم الأعداد الأخيرة من المطبوعات الإسرائيلية التقدمية والديموقراطية، فانني أرى فيها مجدداً الفكرة الواضحة الآتية: طالما ظل مليون ونصف مليون فلسطيني يقبعون تحت الاحتلال الإسرائيلي، وطالما بقي اللاجئون الفلسطينيون في مخيماتهم بدون أمل ومستقبل، فإن المنطقة لن تعرف السلام.

ويبدو الآن ان الإدارة الاميركية ، بعدما جربت كل شيء ، تميل إلى إدراك أكثر واقعية للوضع. وفي اية حال. عندما تمت في الجلسة الاولى لمجلس الأمن مناقشة الاحداث الحالية في الأراضي العربية المحتلة، فإن الوفد الاميركي امتنع عن التصويت، إلا انه لم يحبط اتخاذ قرار مناسب، أما القرار الثاني، فقد اتخذ بالإجماع . وإلى جانب ذلك، فإن واشنطن الرسمية صارت تنوه بين الحين والآخر بانها لا تعارض فكرة عقد المؤتمر الدولي حول الشرق الأوسط، على رغم انها في كل مرة تعبر عن تحفظاتها ارضاء للقادة الإسرائيليين.

وإلى جانب ذلك، فانهم يستغلون كل حجة لاطالة أمد تجميد مسيرة التسوية السياسية الشاملة للنزاع، واحدى هذه الحجج تتلخص في ان شهر تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل يشهد في الولايات المتحدة الاميركية وإسرائيل على السواء انتخابات رئاسية وبرلمانية، وان من شأن ذلك، على حد زعمهم، ان يجعل الوقت الحاضر ليس ملائماً تماماً للقيام بمبادرات دولية كبيرة. ماذا يمكن القول في امثال هذه الحجج؟ أولاً، انه إذا استمرت الأحداث الجارية في الأراضي المحتلة في التطور بمثل زخمها الحالي، فإنه سيكون من الصعب، في الغالب، تجنب تحويل هذه المسألة إلى قضية انتخابية حادة في إسرائيل على الأقل. ثانياً، فإن من الواضح منذ الآن ان الفلسطينيين ليسوا مستعدين للانتظار عشرين سنة أخرى لاستعادة حقوقهم.

فالوقت، إذن ليس فيه متسع كبير، ومن الاصلح البدء الآن بعمل تحضيري نشط للاعداد للمؤتمر الدولي. ان صوت نفير الاحداث في الضفة العربية من نهر الأردن وفي قطاع غزة هو إشارة انطلاق لا تحتمل معنيين . أما التقاعس عن عمل شيء ما، فإنه يؤدي إلى ذلك الطريق المسدود الذي يقبع في نهايته برميل بارود بفتيل سريع الاشتعال.

(عن «ازفستيا» ١٩٨٨/١/١٠ ــ نشرت في «السفير» ٨٨/٢/١٨)



منطق الثورات والانتفاضات

«الانتفاضة» في الأرض المحتلة» قد تتحول ثورة عارمة. في رأي مصدر دبلوماسي. إذا قيض لها أن تتواصل بالوتيرة نفسها التي بدأت بها. وبالاندفاع ذاته وروح التضحية التي اتصف بها المنتفضون في الضفة الغربية وقطاع غزة. لكنه، مع ذلك، يتخوف من انطفاء الشعلة التي أضاءها أبناء الأرض المختلفة نظراً إلى عوامل عدة ومعطيات غير متوافرة الآن لدفع هذه الحركة كما توافرت لحركات أخرى.

ويعتبر المصدر أن الثورات في العالم ضد المحتل هدفت أولاً وأخيراً، إلى التخلص من الاحتلال وتركيز سلطة وطنية محل السلطة المحتلة، تكون في الأساس تعبيراً عن الاستقلال والسيادة، فضلاً عن تكوين كيان جديد، والاعتقاد السائد في هذا الزمن، أن الغلبة تكون دائماً للثائرين، والأمثلة على ذلك كثيرة، إن كان في المشرق او في المغرب، أو في العالم الواسع، وأن المحتل لا بد من أن يجمع حقائبه في نهاية الأمر، ويرضخ للأمر الواقع ولنتائج الثورة.

■ **في الهند**، أدت ثورة غاندي البيضاء إلى تحرير شبه القارة الهندية برمتها، فقامت دولة الهند ودولة باكستان التي انقسمت بدورها إلى دولتين بعد قيام بنغلادش بتأييد عسكري وسياسي من نيودلهي ساعدها

على الاستقلال والانفصال عن إسلام أباد.

وقيام الدولتين الهندوسية والإسلامية في شبه القارة الهندية مرده إلى نزاعات هندية في الأساس، غذتها بالطبع حاجة المستعمر إلى عامل على الأرض يتكىء عليه لمواجهة احتمالات الخروج من البلاد وفقدان «جوهرة التاج»، لكنه أثبت، مع ذلك، أن الخلافات الدينية المحلية ليست عائقاً أمام الاستقلال والسيادة، وإن كانت عامل عدم استقرار قد يخلخل أساس الدولة الجديدة المستقلة، ويسقطها كلها أو بعضها.

■ **وفي الجزائر**، التي سميت ثورتها ثورة المليون شهيد، لم تستطع القوى العسكرية، على رغم تفوقها في كل المجالات، أن تحتفظ بالبلاد وبهويتها التي عُرفت بها طيلة ١٣٠ سنة من الاستعمار، أو بجزء من هذه البلاد تلبية لطلب المستوطنين.

وهذان المثلان ينسحبان تقريباً على كل البلدان التي تحررت ولم تكن تملك القوة العكسرية الكافية لمواجهة المحتل وقوته الكبيرة في المجالين العسكري والدبلوماسي، وهما يؤكدان ــ إن كانت الثورة بيضاء أو حمراء ـ أن أصحاب الأرض لا بد من أن ينتصروا في نهاية الأمر، مهما تعرضوا له من قمع وضغوطات وتنكيل وتصفيات وطرد.

ويعتبر المصدر الدبلوماسي أن الديمقراطيات في العالم لا تستطيع الاستمرار في قهر شعوب مستعمرة، أو البقاء في الأرض المحتلة عندما تقوم الثورات والانتفاضات، فهناك حد معين لا تقدر على تجاوزه نظراً إلى أن النظام الديمقراطي يحول دون ذلك، حتى أنه يدفع الرأي العام إلى الخروج على سياسة حكومته، أو إلى الاستعانة بقوة سياسية أخرى من البلاد، عبر الانتخابات، تأخذ على عاتقها تصفية تركة عهد سابق. ويشير المصدر، في هذا المجال، إلى أن الثورات في البلدان المحتلة والمستعمرة كانت وراء الكثير من التغييرات والانقلابات السياسية في البلد المستعمر (بكسر الميم). ويقول أن ثورة الجزائر، يضاف إليها ما كانت تتعرض له فرنسا في ذلك الحين، هي التي سرعت الخطوات نحو التغيير بواسطة الجنرال ديغول، توصلاً إلى قرارات تاريخية لا يقدر على صنعها إلا الرجال التاريخيون.

حتى أن البلدان التوتاليتارية، التي تلجأ عادة إلى القمع على يد ما تملكه من قوة عسكرية، لم تعد قادرة، في هذا الزمن، على الاحتفاظ بأرض محتلة. وأمثولة أفغانستان أكبر شاهد على ذلك، فالاتحاد السوفياتي بدأ يستعد، على رغم قوته العسكرية الهائلة، للخروج من هذا المستنقع، ليواجه العالم بوجه جديد، وليثبت رغبته في الانفتاح والتغيير، من دون المس، طبعاً، بجوهر النظام القائم.

لكن، يتساءل المصدر، هل في الإمكان الاستمرار في الانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة اللذين لا تتوافر لهما ما توافر للانتفاضات الأخرى في العالم؟

ويعود إلى الرد على هذا السؤال بقوله: إن شعباً لم يقتلع من أرضه، وهو أمر ثابت في القطاع والضفة، قادر على صنع المعجزات والوصول إلى حقه، على رغم أن «الأرض المحتلة» لا صلة لها بالخارج كما كانت الحال مع الجزائر مثلاً في السابق، وكما هي الآن بالنسبة إلى أفغانستان. فالإسرائيليون بدأوا يطرحون اليوم السؤال: إلى أين نحن ذاهبون، وماذا سيكون عليه موقف العالم منا؟

وهو سؤال يعبر عنه الآن بطرق شتى، وقد تجيب عنه الانتخابات العامة في الخريف المقبل، في شكل قد يؤدي إلى تغيير في ميزان القوى السياسي، بحيث يعود المنادون بضرورة «مبادلة الأرض بالسلام» إلى موقع القرار من دون شريك لا يزال يعتبر أن التوراة هي التي أعطته الحق في التصرف بالسامرة واليهودية... وبقطاع غزة وبغيرها من المناطق المحتلة.

ويلفت المصدر، إلى أن الانتخابات العامة السابقة في إسرائيل أظهرت أن الرأي العام الإسرائيلي حائر بين «منطق التوراة» ومقولة مبادلة الأرض بالسلام على غرار ما حدث مع مصر، على رغم أن السلام المصري ــ الإسلائيلي لم يكن كاملاً، وهو لا يكتمل إلا بحل ما للأرض المحتلة، وقد تتحول حيرته بعد مدة إلى موقف.

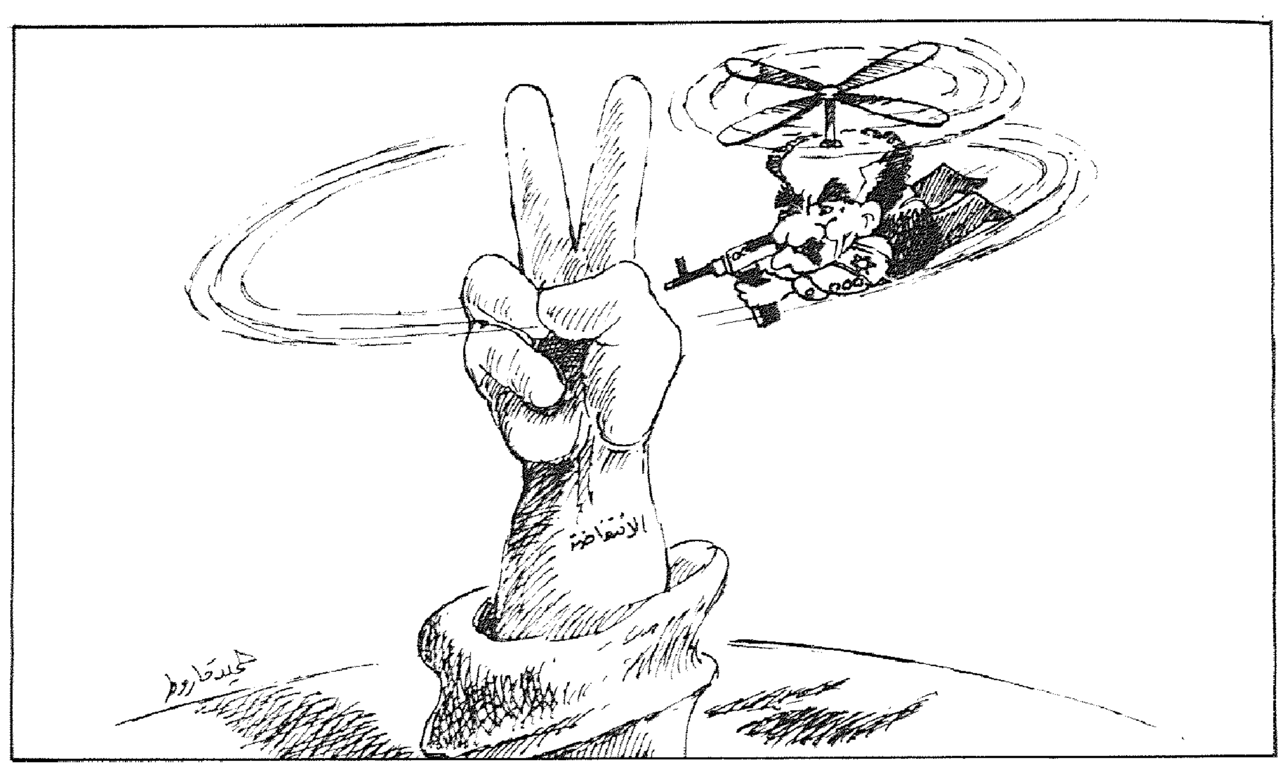
ومهما يكن من أمر، فإن اقتلاع الشعوب وإسكاتها في أيامنا هذه مهمة مستحيلة، وهو ما يتأكد يوماً بعد يوم، حتى بات من الممكن القول أن عقارب الساعة عادت إلى العام ١٩٤٨ في الأرض المحتلة، لتعيد صنع الأحداث مرة أخرى واستخلاص نتائجها.

محـرر

عن جريدة «العمل» اللبنانية ٨٨/٢/١٩

القطـــاع أفـلـت مـن عقـالــه

آفـي بنيـاهـو، عـال همشمـار ١٩٨٧/١٢/٢٢



□ عن جريدة «الشرق» ١٩٨٨/١/٣٠.

[فيمـا يـلـي شهادة ضابـط احتيـاط اسرائيلـي، لم يذكر اسمه، كان يخدم في قطـاع غزة، وفي مخيم جباليا بالذات، خلال الفترة الاولى من الانتفاضة.]

« في الحقيقة، اثرنا ضجة كبيرة لدى بدء خدمة الاحتياط هذه. كان ثمة منذ فترة مناخ من التوتر. وكان واضحاً لدينا إننا ندخل القطاع في فترة مضطربة: نوعية المسارات ذات المغزى التي تجري داخل المجموعات المختلفة، أعمال التحريض، الطعن بالسكاكين وسط المدينة. وفي الواقـع، لم يمـر اسبوعان من دون حدوث قتـل أو حادث تخريبـي، ولكن لم ينشر كـل شيء في وسائل الاعلام. ولكننا قبل خدمة الاحتياط، اطلعنـا، من قبيل الاستعداد، على الوضع بصورة أولية. فقد كان قسم من كتيبتنا مسؤولاً عن مخيم جباليا، الذي هـو اكبر مخيـم للاجئين في المناطق ويقطنه ٥٥ الف شخص باكتظاظ هو الاعلى في العالم. كان واضحاً لدينا ان ثمة في جباليا عـدم هدوء يتسبب فيه طـلاب الصفوف العالية ويتجسد اساساً في قذف الحجارة ورفـع اعـلام م. ت. ف.، ولكنه لم يصـل حـد العنف الشديد.

كان مفهومـاً لدينا ان شرارة صغيرة واحدة هنا تشعل القطاع بأكملـه.

يوم الثلاثاء، ٨ كانون الاول / ديسمبر [١٩٨٧]، وقعـت حادثة سير قتل فيها أربعة من سكان القطاع. فانتشرت في المنطقة كلها فجأة شائعة عن ان الحادثة متعمدة، وان السائق هو شقيق شلومو سيكل، الذي كان قتل فـي القطاع قبل عدة ايام. من غير المؤكد ان يكون هذا هـو السبب في بدء آلاضطرابات، أو هل كانت الاضطرابات ستنفجر حتى من دون الحادثة، ولكنها انفجرت في أي حال. من المهم للغاية تأكيد امرين: كان كل النشاط العنيف في شوارع قطـاع غزة موجهـاً ضد الجيش فقط، ولم يحدث مرة أن هوجم

موظفو الادارة المدنية أو العاملون في دائرة الأشغال العامة أو المكاتب الحكومية. ولم تتم اية مضايقة للسيارات المدنية في محاور الحركة او لمستوطني غوش قطيف. لم يهاجموا سوى الجيش في المنطقة، والمواقع والدوريات. وقد برز هذا جيداً في الأيام العشرة الأخيرة.

السمة الثانية التي ينبغي تأكيدها هو انه لم يتم اللجوء، بحسب معرفتي، إلى استعمال أي سلاح ناري. لقد حشدوا الحجارة كلها، والآلات الحادة والإطارات المطاطية كلها، ولكنهم لم يطلقوا النار بسبب احد احتمالين: أما انه ليس لديهم سلاح ناري أو إنهم لم يشاؤوا البدء بذلك لمعرفتهم الواضحة ان من شأن ذلك احداث تغيير في سياسة الجيش، من شأنه توريطهم.

بعث الجيش على الجنون

بدا في الإضطرابات كلها انه لم يكن ثمة سيطرة مركزية. إننا نقف في قطاع غزة أمام جبهة واسعة جداً، وبحسب معرفتي هي ذات قيادة جديدة وجريئة تسيطر بسهولة على الشوارع والمخيمات. ليس في استطاعتي القول ان ثمة منظمة مسيطرة ذات قيادة. هنالك في القطاع منظمات مختلفة كان كل منها يعمل منفرداً، وفي تقديري انه نشأ في الأيام الأخيرة حلف يشمل هذه الهيئات كلها ضد الجيش.

إنهم لم يخافوا بسبب الجرحى والقتلى، بل على العكس، ان ذلك تسبب في المزيد من الهياج. وكان ثمة الكثير جداً من مظاهر الجرأة لديهم. ان هذا الأمر يبعث على المفاجأة. كما انهم استعملوا اساليب جديدة ، وهكذا مثلاً كانوا يمدون ، في مخيم جباليا خاصة، اسلاكاً شائكة بين الشوارع والأزقة.

كان التاسع من كانون الاول / ديسمبر يوماً اصعب. تصاعدت الاضطرابات في جباليا، واخرجنا إلى الشوارع المقابلة للمخيم عدداً من ناقلات الجند المدرعة. كنا نظن ان تمركز ناقلة جند مدرعة في مواجهة المخيم يشكل عنصراً رادعاً، ولكن الناقلات أثارت المزيد من الغضب وكانت عنصراً مهيجاً.

حفلة «استقبال السبت»

لا أعرف ما هو العصيان المدني، ولكن الحوانيت اغلقت عدة أيام، والمدارس لم تعمل، وتعرقلت الحياة اليومية كلها، ماذا بالضبط يسمى ذلك؟

أستطيع الجزم انه كان ثمة حالات لم يكن الجيش الاسرائيلي يسيطر فيها على محاور الحركة. وكان ثمة أشخاص يخافون التنقل ويطلبون مواكبة من الجيش.

يوم الجمعة ليلاً، تلقينا امراً من قائد المنطقة [الجنوبية] بفرض النظام في الشوارع، وتنظيفها من كل الإطارات المطاطية والحجارة وسائر الحواجز. اسمينا ذلك تندراً «استقبال السبت». بدا الأمر جميلاً. وبعد مرور بضع دقائق، بعد منتصف الليل بقليل، كانت الشوارع مرة اخرى مليئة بالإيطارات المطاطية المشتعلة والحواجز.

تمركزت المنظمات في ثلاثة مراكز: المساجد والمستشفيات والمدارس. حتى في ايام منع التجول، في جباليا، كان يمكن لقائد السكان المحلي ان يذهب للصلاة في المسجد. يقولون ان هذا هو الجانب الانساني في الأمر. كانوا بحاجة إلى اللقا ء بعد ساعات حظر التجول، وكان واضحاً ان عدد الاشخاص الذين يذهبون للصلاة يزداد فجأة عما في الايام العادية.

مستشفى كقلعة

كانت المستشفيات مراكز تنظيمية، وذلك اساساً لان الجنازات تخرج منها، والجرحى ينقلون إليها. ويحوط بمستشفى «الشفاء» مثلاً سور كبير يشكل ساتراً، وهنالك في الداخل غرف كثيرة جداً تشكل امكنة للاختباء. في احد الأيام، وصلت الاضطرابات إلى قمتها. من الصعب علي ان استعمل تعابير عسكرية فيما يتعلق بغزة، ولكننا صراحة تأهبنا للهجوم. اعتقلنا ٤٠ شخصاً من الممرضين. وحصل معي حادث آخر، كشفت فيه فتى كان مستعداً لالقاء زجاجة حارقة. لم تسمح هذه المجموعة للمستشفى بالعمل وحوّلته قلعة. كما ان مدرسة التمريض تحولت بؤرة تحريض.

كان ثمة ثغرات في جهاز إعداد التقارير لدى الجيش في أيام الاضطرابات في القطاع. هنالك شهادات جزئية، وكان ينبغي اجراء تحقيق اكثر. وفي رايـي، ان عناصر مدنية شاركت في إطلاق النار، وقد رأيت ذلك بعيني مرة واحدة على الاقل. ويبدو انه كان ثمة أيضاً حوادث إطلاق نار داخل المخيمات بهدف تصفية حسابات فيما بينهم.

«خلقوا» جنائز بهدف التحريض

ينبغي أن نفهم ان الجنازة في نظرهم هي أمر مثالي. فالنجازة تحشد الكثير جداً من الاشخاص وتشكل اداة للتحريض. والجنازة مكان جيد للانطلاق إلى نشاط جماهيري. وفي رايـي انهم، لهذا الغرض، «خلقوا» جنائز. كان هنالك ظاهرة سرقة جثث، وليس واضحاً لدينا حتى الآن من دُفن واين؟ كانوا يأخذون الجثث على نقالات إلى داخل مخيم جباليا، ويركضون بها بين الأزقة ويجرّون الآلاف إلى الشوارع. هل تعرف ان جباليا مخيم في كبر كيبوتسك ويسكنه أكثر من ٥٠ الف شخص. في غضون لحظة، تخرج الجماهير إلى الشوارع.

واجهنا معضلة شديدة في اختيار مكان تسيير الدوريات. فإذا سرنا في الشارع المحاذي للمخيم، اصبحنا هدفاً للحجارة. في وحدتنا فقط، جرح ١٥ جندياً خلال تلك الأيام. وإذا سرنا داخل الأزقة، تعرضنا لخطر أن يخطفوا منا جندياً او سلاحاً. عند صرخة واحدة، يخرج الآلاف هناك. وفي هذه الحالة تواجه خطراً، ويكون عليك ان ترد باطلاق النار في الهواء أو تحت القدمين. انهم لا يخافون. مرة صادف أن أطلقت النار تحت رجلي شخص. كانوا يقفون هناك عند مدخل زقاق ويصيحون بي بالعبرية: «تعلمْ التصويب». انهم يتحدثون العبرية البذيئة كتلك التي في ملاعب كرة القدم.

لدى الجنود النظاميين احساس ثقيل للغاية

إنني انهي خدمة الاحتياط هذه بشعور ثقيل جداً. الجيش لا يستطيع ان يعطي الرد بدلاً من المؤسسة السياسية. وهنالك حد للفترة الزمنية التي يمكننا فيها السيطرة على القطاع. وكلما كان الخلاف السياسي على مستوى اعلى، اصبح الجندي المعزول محاصراً بجمهور أكثر هياجاً.

لدى الجنود النظاميين اجمالاً احساس ثقيل. فتيان يخدمون في الجيش منذ ثلاثة اشهر وهم غير مهيئين نفسياً وجسدياً، يلقى بهم في مثل هذا الوضع. هذه مشكلة حقيقية. هؤلاء الجنود عليهم ان ينتقلوا من تدريبات اطلاق النار على العدو إلى مواجهة انسان هو ببساطة يكرهك، يحدجك بنظرة ، يبصق عليك ويذلك. هذا الانتقال قاس وليس التشخيص صحيحاً دائماً.

ثمة مشكلة فيما يتعلق بالمسافة بين استعمال الغاز المسيل للدموع واطلاق النار من سلاح ناري

كما انه ليس لدى الجيش نظرية في مواجهة مثل هذه الاوضاع. فكتيبتنا، مثلاً، لم تتلقى مرة واحدة تدريباً على تفريق التظاهرات. على الجيش الإسرائيلي ان يفكر في ذلك. وفي هذه الأثناء، يكلفنا الأمر وقتاً وقوى وإصابات.

جو من النار والوهن

تسأل إذا كنا خفنا. بالتأكيد ثمة خوف. نخاف من الوقوع وسط جمهور هائج. ثمة خوف من الحجارة التي تطير في الهواء. فجأة، من دون توقع، ترتجّ من الحجر او الزجاجة الحارقة. الجو مليء بالنار وصرخات النساء المسنّات، والاحساس بالوهن، ومع ذلك فإن اطلاق النار في الهواء يحررك من الاحساس بالخوف ومن الضغط.

(عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية العدد ١ ــ ك ٢ (يناير) ١٩٨٨)



الاضطرابات في المناطق كمنعطف تصعيدي

د. موشيه شيمش(*)، هارتس ١٩٨٨/١/٢٠

إن النقاش حول كيفية تعريف الأحداث - «عصيان مدني» أو مجرد «موجة» اخرى من المشاغبات ـ هو نقاش جوهري لا ايديولوجي فقط. انه مرتبط بمسألة تقدير الوضع السياسي في المناطق على المدى القصير والمدى الطويل، وذلك بشكل موضوعي وواقعي ومن دون ربطها بهذه السياسة او تلك او صبغها بألوان إيجابية من أجل تبرير السياسة.

المطلوب اليوم، أكثر مما في الماضي، تقدير صحيح، سواء للمعلومات الجارية عما يحدث في المناطق أو للمسارات الأجتماعية السياسية التي تتطور فيها. إن تقديراً صحيحاً لهذا المسارات سيضمن، على الأقل، عدم ارتكاب اخطاء ويحول دون مزيد من تدهور الوضع في المناطق كنتيجة لخطوات غير حكيمة من الحكم [العسكري]، وكذلك تهدئة مسار التدهور فيها. ومع ذلك يجب ان نؤكد ان مسارات تتطور في المناطق لا سيطرة للحكم الاسرائيلي عليها. وهي، في بعض الأحيان، الأكثر تأثيراً في ما يحدث.

من يستقصي المسارات السياسية ـ الاجتماعية في الضفة وقطاع غزة وكذلك تصرف السكان إزاء الحكم الاسرائيلي منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧، لا يستطيع إلا أن يرى في أحداث الأسابيع الأخيرة منعطفاً في المسار التصعيدي لتعبيرات المعارضة للحكم الاسرائيلي. هذا المنعطف يتجلى في عدة مجالات. قبل كل شيء في حجم الأحداث وشدتها: في العدد الكبير للمشاركين فيها الذى بلغ مئات كثيرة ولا نبالغ إذا ما قلنا آلافاً؛ بالوسائل التي استخدموها، بما في ذلك مئات الزجاجات الحارقة التي ألقيت في يوم واحد، وكذلك في استخدام أدوات حادة: تضامن مجموع الفلسطينيين [الخاضعين] للحكم الاسرائيلي بشكل لم يسبق له مثيل منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

لذلك لا عجب في ان سكان المناطق ووسائل الاعلام اطلقوا على هذه الاضطرابات اسم «انتفاضة»، اي «تمرد» أو «يقظة عامة». كانت هذه هي المرة الأولى التي أمكن فيها اطلاق تسمية كهذه على الأضطرابات في المناطق. ولا شك في ان الفلسطينيين سيسجلون هذه الاحداث كنقطة تحول في نضال سكان المناطق ضد الحكم الاسرائيلي. وتشير هذه التسمية أيضاً إلى ان سكان المناطق يشعرون ويدركون طابع المشاغبات واتجاهاتها.

إن سمات الأخداث الأخيرة هي نتيجة للإحساس بالقوة في مواجهة الحكم وقوات الأمن، أكثر مما هي نتيجة لليأس والإحباط من استمرار الاحتلال. هذا الاحساس بالقوة هو من نصيب تلك المجموعة أو الطبقة من السكان التي تقود الاضطرابات في المناطق وتنظمها، والتي تتألف من طلاب وخريجي جامعات ترعرعوا تحت الاحتلال وعلى أمجاد مفهوم الكفاح المسلح لمنظمات «المخربين». هذا الإحساس بالقوة يبث بواسطتهم إلى جمهور اكثر اتساعاً من الكوادر الشابة، بما في ذلك الطلاب، وتلقائياً أيضاً إلى طبقات أخرى من السكان. من المفهوم ان هذا الشعور هو ذاتي بالتأكيد وغير مبني بالضرورة على تقدير حقيقي.

إن الانخراط الفعال لقطاع غزة في الاضطرابات، التي تجلت احياناً بصورة اكثر حدة مما في الضفة جدير بالملاحظة. في الماضي كنا نشهد انجرار القطاع وراء الضفة في عمليات المعارضة للحكم. هذه المرة بدأت الحوادث في القطاع ثم انتقلت إلى الضفة ومن هناك شعت عائدة وبصورة حادة إلى القطاع. وهكذا نشأت تغذية متبادلة. ومن المعقول [القول] أيضاً تنسيق بين المنطقتين. بالمقابلة مع الوضع في القطاع في الماضي فإن التحول في مسار التصعيد كان أكثر حدة في القطاع مما في الضفة. إن الجرأة في إصابة جنود الجيش الاسرائيلي ومواطنين اسرائيليين ، بسلاح ناري وبارد، كانت ظاهرة مميزة للقطاع في السنة الأخيرة. هذا التحول في الوضع الأمني في القطاع يستوجب انتباهاً خاصاً في تقدير الوضع بالنسبة إلى هذه المنطقة على المدى الطويل.



إن سكان المناطق هم التجمع الفلسطيني الأكبر في العالم اليوم. إنهم بؤرة النشاطات القومية والقاعدة الشعبية للحركة القومية الفلسطينية «كإطار سقف لمنظمات المخربين . (...) إن جيل الاحتلال، الذي يتمادى في الاتساع ويشمل اليوم ما يقرب من ثلثي سكان المناطق، يشكل ارضية خصبة لهذه النشاطات القومية. هذا الجمهور هو صاحب وعي سياسي فلسطيني متطور جداً. طوال ٢٠ سنة من الاحتلال اجتاز [هذا الجيل] مساراً مكثفاً من الفلسطنة بمفهوم تعزيز الوعي والهوية الوطنية الفلسطينية. كان على هذا الجمهور ان يبحث لنفسه عن رمز وتعبير عن رغباته القومية.

إن رؤساء [بلديات] المدن اليوم، بما في ذلك الرئيسية منها (نابلس والخليل ورام الله)، الذين عينهم الحكم الإسرائيلي كبدلاء من سابقيهم القوميين المتطرفين فاقدون كل تأثير سياسي. إنهم غير معنيين بأن يتدخلوا في السياسة وهم يكتفون بإدارة الشؤون اليومية للسكان. إنهم لا يستطيعون التأثير حتى لو ارادوا ذلك. وفي لقاءاتهم ممثلي الحكم، يعترفون بأنهم مؤهلين للعمل على تهدئة النفوس.

إن شخصيات ذات مكانة سياسية كالصحافيين وبعض رؤساء البلديات سابقاً او مثقفين، الذين يجتمعون بشخصيات اسرائيلية او بضيوف من خارج البلد، يرددون مواقف م. ت. ف. المعروفة، من خلال تغليفها بألوان من الاعتدال الذي تستوجبه المكانة، وبذلك فإنهم يشيرون إلى حالتهم السياسية الواضحة للمؤسسة الفلسطينية. في وضع كهذا فإن الحوار المهم الوحيد الذي يفي لتهدئة النفوس وإنهاء الاضطرابات هو [ما يجري] على الأرض بين قوات الجيش الإسرائيلي وبين المشاغبين وقياداتهم.

لقد ثبت ان مقياس الوضع السياسي والأمني في المناطق ليس عدد الاصابات والتظاهرات أو خرق النظام لفترة معينة بالمقارنة مع سابقتها. بل إن ما هو أكثر أهمية هو طابع العمليات وخطورتها ومصدرها ومستوى التنفيذ وعامل المجازفة فيها. إذا كان هذا التقدير صحيحاً، فالسؤال هو: في أية مرحلة من منعطف تصعيد آخر في الوضع الأمني في المناطق، قد ينتقل وطنيون متطرفون إلى استخدام أسلحة نارية في المواجهة مع قوات الجيش الإسرائيلي.

إن الوضع في المناطق سيهدأ في مرحلة ما في المستقبل لفترة معينة، لكن المسألة ستبقى بعينها — هل ستستخرج الدروس الصحيحة التي يتطلبها تقدير صحيح لخلفية الاضطرابات ، من دون أن ننسبها إلى هذه العوامل الفورية او تلك.

عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية السنة الخامسة العدد (٢) شباط ١٩٨٨)

(*) محاضر في دراسات الشرق الأوسط في جامعة بن ـ غوريون وباحث في مركز تراث بن ـ غوريون.

الكلفة الحقيقية للانتفاضة

ليفي موراف

بعد بضعة أيام تنقضي خمسة اشهر على الانتفاضة (ثورة أو يقظة سكان المناطق)، وقد وصف رئيس الحكومة ما حصل في المناطق منذ يوم ١٩٨٧/١٢/٩، بالحرب وأعلن الجيش الإسرائيلي والمؤسسة الأمنية انه بموجب خطة العمل للسنة المقبلة (نيسان/ ابريل ١٩٨٨ ــ آذار / مارس ١٩٨٩) سيخدم جنود الاحتياط حتى ٦٢ يوماً في السنة من دون الحاجة إلى أمر... وذكرت وزارة الشرطة انها توجهت إلى وزارة المال تطلب زيادة موازنتها عشرات الملايين من الشيكلات الجديدة لتغطية الزيادة في انفاقها على الأجور بعد التعبئة الموسعة لافراد الشرطة منذ بداية الانتفاضة.

لقد اتضح في هذه الايام، وبحسب بيانات المكتب المركزي للاحصاء، ان شهر آذار (مارس) ١٩٨٨، شهد انخفاضاً بنسبة ١٧ ٪(؟) في السياحة الوافدة إلى إسرائيل، ولحظ المكتب المركزي للاحصاء، تجنباً لأي سوء فهم، ان هذا المعطى خال من التأثيرات الموسمية، وهناك احساس بالقلق في شركة الطيران الوطنية «العال» ــ فلقد طرأ انخفاض بنسبة ٢٠ إلى ٣٠٪ في الحجوزات على خط الشركة عبر الاطلنطي بالمقارنة مع الفترة التي تلت عيد الفصح في السنة الماضية (١٩٨٧).

وذكر أيضاً وزير الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي جاد يعقوبي قبل فترة وجيزة، ان الاقتصاد الإسرائيلي سيمنى، في تقديره بخسارة في الانتاج بقيمة ٧٠٠ مليون شيكل جديد على الأقل، عقب الانتفاضة، ولكن اقواله لم تترك صدى كبيراً كما لم تثر انفعالاً خاصاً، لا في زارة المال ولا في ديوان رئيس الحكومة أو في مكتب رئيس الحكومة بالوكالة، فهؤلاء منشغلون طبعاً بأمور أخرى ليست اقتصادية تماماً.

إن الوزيرين الوحيدين والوزارتين التابعتين لهما، اللذين يطلقان بوادر معارضة لهذه التقديرات، هما وزير المال ووزير الصناعة والتجارة، والوزير نسيم الذي يقوم في الوقت الحاضر بجولة في أوروبا، نجح في اكتشاف ان ليس «للاحداث» في «المناطق» انعكاس على الاستعدادات للاستثمار في إسرائيل» وانصافاً له يقال انه تذكر ان يلحظ، على الرغم من ذلك، ان الحديث لا يجري عن صف طويل وحاشد من المستثمرين الذين يقفون بفارغ الصبر ينتظرون اللحظة التي يستطيعون فيها الاستثمار، ونقل عن المدير العام لوزارة الصناعة والتجارة يورام بليزوفسكي قوله ان «الاحداث» في المناطق بالكاد اثرت في الصناعة الإسرائيلية»، استناداً إلى استقصاء شمل ١٨٠ مصنعاً ومع ذلك تبين ان نصف هذه المعامل شهدت انخفاضاً في مبيعاتها بنسبة ١٠ ٪ بعد الاحداث وأكثر من ذلك، تعترف وزارة الصناعة والتجارة بوجود مصانع واجهت مصاعب وكلها مصانع في قطاع الملبوسات والنسيج.

إذا كان هذا لا يكفي، فقد ذكرت في هذه الأيام ان النشاط الذي تقوم به قوى الأمن والجيش الإسرائيلي في المناطق له ثمن اقتصادي، ووصفت مصادر في المؤسسة الأمنية هذا الثمن بانه «باهظ» وقدرته بنحو ٤٠٠ مليون شيكل جديد، وفي الحقيقة حصل وفر بسبب تقليص التدريبات ، لكن المؤسسة الأمنية قررت التوجه إلى وزارة المال لطلب زيادة موازنة الدفاع ربع مليار شيكل جديد، ويمكن لهذا المبلغ من المال ان يأتي من مصدرين اثنين فقط: من الاحتياطي المالي ومن طباعة الاوراق النقدية.

وإذا استندنا استناداً كاملاً إلى اقوال وزير المال يتضح لنا ان الشركة الاميركية «جنرال برينغ» قررت التخلي عن حفظها لشراء مصنع «كرمو تعاسيوت» في كرميئيل، وذكر في التصريحات التي اعطاها أصحاب الشركة إلى حارسها القضائي الرسمي في إسرائيل ان الشركة قد الغت الصفقة بسبب تأثير الاضطرابات في الرأي العام الاميركي.

ما العمل لوقف الانتفاضة في المناطق ـــ إنه سؤال سياسي دون شك ولكننا لن نخوض في هذا الموضوع هنا، إلا ان مسألة واحدة قد غابت عن فهمنا: يمكن ان يكون موقفك السياسي هكذا او غير ذلك في المجال السياسي، ولكن كيف نتجاهل الانعكاسات الاقتصادية لما وصفه حتى رئيس الحكومة بالحرب، هذا ما استعصى علي فهمه، أننا لا نتحدث هنا عن حدث محلي أو هامشي، فالإشارات تزداد أكثر فأكثر على ان للانتفاضة في المناطق تأثيراً اقتصادياً بعيد المدى تقريباً في كل المجالات الاقتصادية المهمة في حياتنا وقبل كل شيء في الانفاق العام المخطط مع ما تعني هذه الحقيقة بالنسبة إلى التوازن في الميزانية ومستوى الاسعار وارتفاع مؤشر الاسعار ونسبة صرف العملة وربحية الصناعة.

وحتى لو اعتقد البعض ان ما يجري هو «اعمال شغب» أو «احداث» وليس انتفاضة، عليه حتى عند ذلك، ان يقدم للجمهور تقريراً لو جزئياً ومؤقتاً فمن المحظور الاستمرار في اخفاء الرأس في الرمال، بالافتراض ان ما لا نراه هو دليل على عدم حدوثه. وكلام وزير الاقتصاد والتخطيط جاد يعقوبي، جدير بالتعاطي الجدي، وحتى لو كنا لا نوافقه اراءه السياسية وخصوصاً حتى لو كنا نعتقد ان تقديراته الاقتصادية خاطئة ومضللة أو مبالغ فيها، فإنه قد تحدث في الجوهر.

إن وزير المال يستطيع ان يسافر إلى بلدان ما وراء البحار (باسم الشعب والأمة بالطبع)، ويستطيع ان يحاول الاداء بشهادته بعيداً، لكن هذا لن يساعده. فهو في نهاية الأمر سينزل في (مطار) اللد والمشاكل لن تسافر إلى خارج البلاد ـــ فهي باقية عندنا هنا ولوقت طويل على ما يبدو. فإذا خالف مسؤولو وزارة المال جاد يعقوبي راية، وإذا اعتقدوا في بنك اسرائيل انهم في وزارة الاقتصاد والتخطيط يضخمون الأمور فليسمعوا اصواتهم ويقولون كل ما عندهم، وإلى ان يفعلوا ذلك ـــ سنستمر في قبول تحليل يعقوبي واستناداً إلى حاجات وزارة الاقتاصد فإن الخسارة تتألف من العناصر الآتية:

● انخفاض حجم الإيراد من الضرائب ـــ ضريبة الدخل وضريبة فائض القيمة، ففي الأشهر الثلاثة الاولى من الانتفاضة نجمت خسارة مقدارها ٣٠٪ وهذا يعني خسارة سنوية تبلغ ١٠٠ مليون شيكل جديد.

● لقد طرأت هذه السنة وستطرأ زيادة بارزة في نفقات الأمن ـــ الشرطة وحرس الحدود والجيش الإسرائيلي ـــ لقمع الأضطرابات، وبحسب تقدير وزارة الاقتصاد فإن الأمر يتعلق بنفقات مباشرة (اجور ومعدات وغيرها) بمئات الملايين من الشيكلات الجديدة، وعند إعداد التقرير في الوزارة، في ختام الشهر الثالث على الانتفاضة، كان الحديث يدور عن نفقات مباشرة تبلغ ١٥٠ مليون شيكل جديد. وهذا ينطبق على ثلاثة اشهر. وقد نشر في هذه الاثناء ان المؤسسة الأمنية وحدها تطالب بزيادة الميزانية ٢٥٠ مليون شيكل جديد، وان وزارة الشرطة تطلب عشرات الملايين من الشيكلات الجديدة لتغطية زيادة الرواتب واليوم ، بعد خمسة اشهر من بداية الانتفاضة، يبدو تقدير وزارة الاقتصاد حذراً، محافظاً، وينزع إلى التقليل وبالمناسبة، فإن الخسارة الانتاجية في الاقتصاد لم تؤخذ في الحسبان.

● بحسب معطيات جمعتها الوزارة ستطرأ خسارة في الانتاج بنسبة ٢٠٪ في قطاع البناء (نحو ٥٠٪ من عمال البناء في إسرائيل هم من المناطق) وهذا يعني خسارة في الانتاج تبلغ ١٦٠ مليون شيكل، جديد.

● ستطرأ خسارة على الانتاج في قطاعي الزراعة والصناعة أيضاً بسبب فقدان القدرة الانتاجية، وبحسب تقدير وزارة الاقتصاد ستبلغ الخسارة نحو ١٤٠ مليون شيكل جديد، واجمالاً فإن الحديث هنا يدور عن خسارة في الحصيلة الانتاجية في الزراعة والبناء والصناعة تبلغ ٣٠٠ مليون شيكل جديد في السنة.

● حصل تقليص مهم في التصدير الإسرائيلي إلى المناطق، في عام ١٩٨٧ بلغت قيمة الصادرات الإسرائيلية إلى المناطق ١,١ مليار دولار، وفي الأشهر الأربعة الأولى من الانتفاضة طرأ انخفاض بنسبة ٤٠٪ في التصدير، وبحسب تقدير الوزارة فإن الخسارة على أساس سنوي لا تقل عن ١٦٠ مليون شيكل جديد.

● لقد تضرر التصدير الإسرائيلي إلى أوروبا والولايات المتحدة بسبب تأثير التقارير من المناطق في الرأي العام، وقد انعكس ذلك أكثر ما انعكس على الصعيد الاقتصادي، وعلى التصدير الزراعي (الحمضيات والفاكهة) عندما امتنع البرلمان الاوروبي عن اقرار الاتفاقات التجارية مع اسرائيل، والتفسير الفعلي لهذا الامتناع هو خسارة ٥٠ مليون دولار في فوارق الرسوم الجمركية.

إن كل انسان عاقل يفهم اليوم ان الأعمال ليست كعادتها، وان تجاهل تأثير انتفاضة المناطق في الاقتصاد لم يخفي المشاكل. والأمر الملح اليوم هو الجرأة السياسية والاستقامة الفكرية للاعتراف بالمشكلة الاقتصادية التي اثارتها الانتفاضة، فالمشكلة المعترف بوجودها من السهل اكثر مواجهتها . على أية حال، هذه معطيات اولية حتى وان كانت لا تفي بالغرض ولقد آن الأوان ولو بتأخير معين، ليفهم بنك إسرائيل ووزارة المال ذلك.

(عن «نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية» العدد ٥/٨٨ ـ نقلاً عن «عال همشمار ٢٥/٤/٨٨)



«بالدم والنار نفدي الجولان»

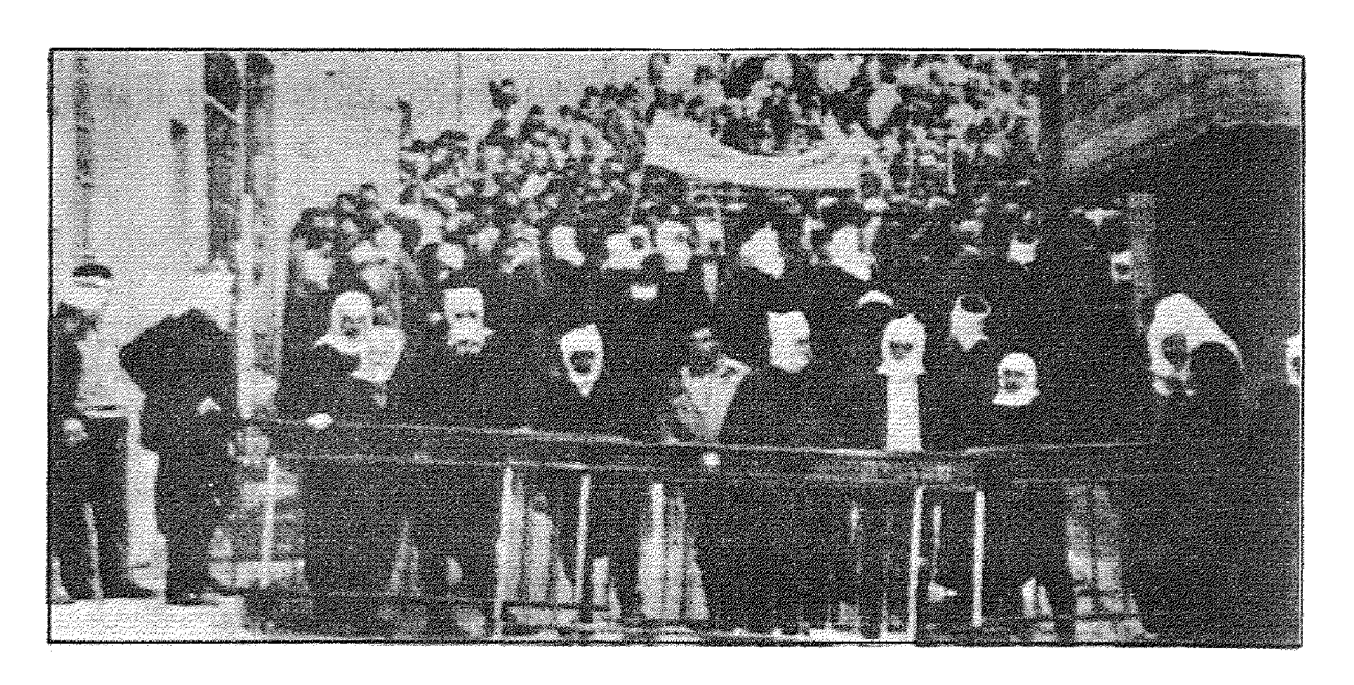
(يهودا تسور، حوتام (ملحق عال همشمار) ١٩/٢/١٩٨٨، ص ٥ و ٦)



غيوم من الغاز أطلقها أفراد شرطة إسرائيل في اتجاه سطوح منازل مجدل شمس، رداً على الحجارة التي ألقيت عليهم. كانت هذه مرحلة جديدة في التصعيد المتواصل في العشرين عاماً الأخيرة، منذ بداية سيطرة إسرائيل على الجولان. فق ولد جيل جديد لا يتصدى لاستمرار الاحتلال الإسرائيلي فحسب، وإنما أيضاً لقادته الروحيين والتقليديين الذين يحاولون الحفاظ على سبل الحل الوسط. وقد حاول عشرات رجال الدين ورؤساء العائلات التوصل إلى حل وسط في نهاية الأسبوع الماضي، لكي توافق الشرطة على قيام مسيرة في ساحة مجدل شمس الرئيسية، ولكن هذه المحاولات فشلت، مما أفرح مئات الشبان الذين فعلوا كل شيء من أجل الوصول إلى مواجهة مع الـ ٦٠٠ شرطي وافراد حرس الحدود. وأصرت الشرطة على أن يطلب الدروز الموافقة على إقامة تظاهرة، معطية تلميحات غامضة جداً بأن الموافقة ستعطى فوراً، وأن المسيرة، من دون أعمال خرق للنظام طبعاً، يمكنها أن تنطلق. لكن الدورز رفضوا، تحت ضغط الشبان المعارضين للسلطة الإسرائيلية.

«نحن لا نعترف بالسلطة الإسرائيلية». قالوا لنا «إنها سلطة احتلال. وإذا طلبنا هذه الموافقة، فكأننا نعترف بالاحتلال وقانونه. إن مجدل شمس قريتنا وهذه أرضنا، جزء من الوطن العربي السوري، وليس لديكم ما تفعلونه هنا، وبالتأكيد لن نطلب موافقة لكي نفعل في بيتنا ما نريد».

إن الشبان المتمردين، الملثمين بالكوفيات، بحيث تحدق عبرها عيونهم فقط، يشبهون كثيراً أبناء جيلهم وأشقائهم في المناطق [الضفة الغربية وقطاع غزة]، وهم لا يذكّرون مطلقاً بالهيئة التقليدية للدرزي ذي الشاربين، الذي كان يتفاخر دائماً بلباس الرأس الأبيض، الذي كان يميزه عن العربي الملثم بالكوفية. إن مئات الشبان الذين قذفوا الحجارة من فوق سطوح المنازل في اتجاه مئات رجال الشرطة وحرس الحدود في مجدل شمس، كانوا يشبهون، إلى درجة تبعث على الدهشة، الشبان الفلسطينيين في المناطق، سواء من حيث لباسهم الخارجي أو من حيث كراهيتهم المتقدة ومعارضتهم استمرار السلطة الإسرائيلية هناك.



يوم الأحد، الساعة الثامنة صباحاً، كانت مجدل شمس منطقة تحتلها الشرطة. حُشدت في المنطقة قوات كبيرة لم نر مثلها منذ إضراب الدورز في الجولان قبل ستة أعوام، وقد نُقلت من قواعدها في جنوب البلد ووسطه وأكثر من ١٠٠٠ شاب، يحملون لافتات ضد الاحتلال ويهتفون «بالدم والنار نفدي الجولان»، احتشدوا في الشارع المؤدي إلى الساحة. وحاول عشرات الشيوخ الملتحين، من القيادة الدينية والتقليدية، منع وقوع مواجهة بين الطرفين. وجرت مفاوضات طويلة مع القيادة العليا للشرطة، التي كانت تتعرض كل دقيقتين لوابل من الحجارة تلقى من فوق السطوح. وعند الحادية عشر تقريباً، وبعد أن قام رجال الشرطة بعدة غارات على قاذفي الحجارة من دون جدوى. أعطيت الإشارة وأطلقت قنابل الغاز الأولى ثم بدأت المعركة...

[.......]

قبل فترة قصيرة من ذلك، دعانا شابان للدخول وسماع «ما يريد الأب أن يقوله». وفي البيت الفسيح، الذي يقطنه عشرات الأفراد من أبناء العائلة المتشعبة، يقول لنا أحد الشابين: «كنت في الاعتقال الإداري لستة شهور في فترة الإضراب الكبير قبل ستة أعوام. ومرضت بسبب ذلك. إننا نريد عودة الحكم العربي السوري إلى مجدل شمس. ولن نحتمل بعد الآن أن تظل هذه الأرض تحت سلطة إسرائيل. ليس بإمكاننا طلب الموافقة على إقامة تظاهرات، لأن هذه أرضنا، ونحن لا نعترف بالاحتلال الإسرائيلي. دولتنا هي سوريا. نحن أناس نسعى للسلام وتوجهنا للهدوء، ولكن نحن سوريون في كل شيء، وسنبقى كذلك إلى الأبد [...]».

ويؤكد الشاب الآخر في البيت نفسه: «لقد ولت الأعوام التي كان يمكن فيها لإسرائيل التفكير أنها تسيطر هنا من دون مشكلات. إنكم لا تفهمون أن هنالك اليوم جيلاً جديداً. الشبان يشعرون كدروز، وأيضاً كعرب ووطنيين سوريين، وأنتم ما تزالون تفكرون أن الأمر باقٍ على حاله وأن هذه مسألة بضعة محرضين فقط. افهموا خطأكم في الوقت المناسب قبل فوات الأوان».

[.......]

إنهم لا يريدون سلطة إسرائيل بعد الآن، والانقسام التقليدي بين العائلات عاد غير موجود كما في الماضي. ويمكن أن نتوقع احتدام المناسبات التقليدية التي يتظاهر فيها سكان الجولان: الذكرى السنوية للإضراب، يوم استقلال سوريا، [تأسيس] حزب البعث العربي السوري. وأوضاع المواجهة بين الشرطة والمتظاهرين تتصاعد بشكل متواصل.

(عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية)
العدد ٣ ــ آذار ــ مارس ١٩٨٨

إسرائيل: الحيرة والانحراف

آمنون كابيليوك

كان من الضروري قتل خمسين فلسطينياً دفعة واحدة لأن بذلك كان يمكننا أن ننعم بالسلام لمدة ثلاثين عاماً («يدعوت احرنوت» عدد ٢٣ كانون الأول ١٩٨٧).

هذا ما اقترحه نبري شليطا، النائب في حزب الليكود، بعد أسبوعين من بداية الاضطرابات في الضفة الغربية وغزة، كعلاج للصدمة التي تعرض لها المجتمع الإسرائيلي نتيجة هذه الاضطرابات. فبعد فترة القلق التي سادت في الأيام الأولى للاضطرابات، لم يعد أمام أكثرية السكان الإسرائيليين سوى تبني واعتماد السلوك «العشائري». فإلتحق هؤلاء بزعمائهم واعتنقوا تفسيراتهم للأوضاع والتي تقول «إن راشقي الحجارة هم المذنبون». ونسى كل إسرائيلي ما جرى طيلة عشرين عاماً من الاحتلال من عمليات استملاك للأراضي ومن أعمال عنف وتعذيب وطرد ومن انتهاكات يومية لحقوق الإنسان.

إنه الواقع البائس المذهل: واقع أن يتجاهل أكثرية الإسرائيليين ــ هذا الشعب الذي تعرض على مر القرون لمحاولات الإذلال والإبادة ــ صرخات شعب مغتصب يتوق إلى العيش بكرامة واستقلالية.

لقد بغتت «المؤسسة الإسرائيلية» فعلاً بالانتفاضة. وكما حدث عشية حرب اكتوبر ــ تشرين عام ١٩٧٣، لم ير القادة الإسرائيليون المتشبثون بمفاهيم مستمرة، حلول العاصفة. إن، ومع هجمات الجيش المصري، سقط وهم «الإبقاء على الوضع الراهن طالما نحن نريد الإبقاء عليه» كذلك، وفي كانون الأول ١٩٨٧ زالت الأوهام الجنوبية بـ «الوجود الدائم المستمر» في الأراضي المحتلة ومع ذلك، وفي عام ١٩٧٣ كما في عام ١٩٨٧، كانت كل الدلائل تؤكد على اقتراب العاصفة. إلا أن العيون كانت مغمضة والعقول مقفلة.

وفي كلتا الحالتين، لم تنعدم التحذيرات من خطورة العواقب. فمنذ بداية الاحتلال في عام ١٩٦٧، نبه البرفسور يشاياهو ليبوفيتز من الجامعة العبرية في القدس من أن دولة إسرائيل، بتكريسها كل وسائلها وجهودها للسيطرة على الفلسطينيين ستضحى «مسخاً» لكن من كان ليصغي إليه؟

وفي بداية الانتفاضة في كانون الأول بحث المسؤولون الإسرائيليون عن أسباب مموهة خادعة لتفسير انطلاقة الانتفاضة فأعلن رئيس الوزراء إسحاق شامير أن عملية الكوماندوس الفلسطيني في شمال إسرائيل في نهاية شهر تشرين الثاني «كانت السبب الرئيسي لقيام الاضطرابات في الأراضي المحتلة». في حين أصر وزير الدفاع، عضو حزب العمل، رابين، ومطولاً، على رأيه القائل بأن «الاضطرابات ستنتهي سريعاً». إلا أنه كان يجب عليه انتظار فترة شهرين آخرين ليعترف الوزير نفسه بأن «هذه الاضطرابات مستمرة» حتى يتم التوصل إلى تسوية سياسية للقضية الفلسطينية».

وعلى رغم هذه الحيرة التي سادت إسرائيل، فإن كل الاستفتاءات تدل على أن أكثرية الإسرائيليين تؤيد سياسة «القبضة الحديد» في الأراضي المحتلة. فبعد أسبوعين من بداية الاضطرابات طالب ٦٩ بالمئة من الأشخاص الذين شملهم الاستفتاء بتعزيز وتقوية إجراءات القمع، في حين أعلن ٢٣ بالمئة ارتياحهم للإجراءات المتخذة من قبل وزير الدفاع. وطالبت أقلية ضئيلة باعتماد اللين وتلطيف الإجراءات (استفتاء أجرته صحيفة «يديعوت احرنوت» في ٢٥ ك١ ١٩٨٧).

ولم تكن الاستفتاءات التي جرت في صفوف تلامذة الثانويات، الذين سيدعون قريباً للخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات، أقل مدعاة للقلق. إذ أن ٥٧,٧ بالمئة من تلامذة الصفوف النهائية في ثانوية «أراد» في مدينة النقب ــ حيث يكثر عدد المثقفين ــ أعلنوا تأييدهم لسياسة أكثر قسوة وشدة في الضفة الغربية وغزة، في حين أبدى ٣٣ بالمئة ارتياحهم للإجراءات الحالية، ولم يدل الباقون بأي رأي (استفتاء لصحيفة «دافار» ــ ٤ شباط ١٩٨٨).

أما التلفزيون الرسمي للدولة والذي يستأثر بامتياز البث، فقد تجنب لفترة طويلة بث المشاهد المصورة التي أثارت استنكار العالم بأجمعه. ولم يستطع المشاهدون الإسرائيليون رؤية الفيلم الذي بثه التلفزيون الفرنسي القناة الثانية في ٣١ كانون الثاني والذي يظهر فيه أحد الجنود الإسرائيليين وهو يوسع

شاباً فلسطينياً بالضرب ويدق له رأسه بالحائط ويكسر له يده اليسرى. ولقد لجأ رئيس ومدير عام مكتب الإذاعة والتلفـزيون وعضو حزب «ليكود» أوري بورات إلى كل صلاحياته واستغل نفوذه ليمنع ـــ بحجة الحفاظ على المصلحة الوطنية ـــ بث مثل هذه المشاهد. إلا أن التلفزيون الوطني عاد وبث في ٢٦ شباط مشهداً غير محتمل عن انفلات السادية كان قد صوره صحافيون من شبكة «سي، بي، أس» الأميركية.

وبالمقابل، نشرت الصحف عشرات الروايات المخيفة عن أعمال القمع مما دفع التيار اليميني إلى القيام بحملة ضد «هذه الصحافة غير المسؤولة» وظهرت ملصقات تقول «نريد صحافة مسؤولة» وللمرة الأولى في تاريخ الدولة العبرية أقفلت المجلة الأسبوعية اليهودية «دريش هانيتزوتز» Derech Hanitzotz الصادرة في القدس باللغتين العبرية والعربية. في حين نشط التيار اليميني المتطرف، فكثف حزب المعارضة «هاتحياه» من مباداراته، وحذر رئيسه غولا كوهين من «خطر وقوع البلاد في حرب أهلية» في حال تخليها عن «يهودا» و «السامرة» (الضفة الغربية) وازدادت الدعوات لإخراج السكان الفلسطينيين.

وأثر حادث أصيب خلاله أحد المستوطنين في مستعمرة «اوفرا» بجروح من رشقات الحجارة، طالب قادة غوش أمونيم التي تنشط لإنشاء مستعمرات في الأراضي المحتلة «بجرف ودك قرية مالك الفلسطينية بلا قيد ولا شرط».

ويتضح اليوم، أن الاحتجاج على أعمال القمع في الأراضي المحتلة هو أقل وأضعف مما كان عليه خلال حرب لبنان عام ١٩٨٢، فحرب لبنان ادت إلى مقتل أكثر من ٦٠٠ وجرح آلاف من الجنود الإسرائيليين، في حين أنه منذ ٨ كانون الأول، أي منذ بداية اضطرابات الضفة حتى اليوم، لم تتكبد إسرائيل بعد أي خسائر بشرية. وفي هذا المجال فإن إسرائيل لم تدفـع شيئاً نتيجة لأعمالها القمعية بعد.

وفي عام ١٩٨٢، كانت الدعوات للخروج من المستنقع اللبناني، الحل المقترح من قبل المعارضين لمغامرة إسرائيل في لبنان، وكان حلاً بسيطاً. إلا أن المازق الحالي الذي تعاني منه إسرائيل هو أكثر تعقيداً، فهو يقوم على مسألة أكثر جوهرية: مشكلة مطالبة الفلسطينيين باستعادة حقوقهم الوطنية، وهو ما يصعب على أي إسرائيلي القبول به.

على رغم كل شيء، فإن الإسرائيليين صدموا بتدفق الانتقادات الآتية من اليهود في العالم أجمع. وهكذا، فإن عدة مندوبين من الطائفة اليهودية في ايطاليا قاطعوا حفل استقبال رئيس الوزراء إسحاق شامير حين وصوله إلى روما في ١٥ شباط، وجهر عدة شخصيات كانت صامتة حتى الآن، بأصوات معبرة عن الاعتراض بالقول «أنهم باتوا اليوم يخجلون من كونهم يهودا»؟ كذلك فإن المقالة التي كتبها السينمائي الأميركي وودي ألان في الـ «هيرالد تريبون» في ٢٢ كانون الثاني ١٩٨٨ والذي نادراً ما يتطرق إلى الأمور السياسية، كان لها وقع القنبلة في إسرائيل وأثارت إرتباكاً وقلقاً في صفوف الإسرائيليين.

كذلك فإن نحو ٨٠ ألفاً تظاهروا في تل أبيب في ١٩ كانون الأول بدعوة من حركة «السلام الآن» وتحت شعار «ليسقط الاحتلال» عبروا عن رفض فئة من المواطنين لهذه الإجراءات بطرق مختلفة. ونشرت الصحف عشرات العرائض. ووقع ٦٢٠ أستاذاً من أساتذة الجامعات على عريضة بعنوان: «إن استمرارنا في السعي لفرض هيمنتنا على الأراضي المحتلة يهدد إسرائيل بخطر جدي» (الـ «هيرالد تريبيون» ٢٢ ك٢ ١٩٨٨.

وأعلن عدد من الكتاب بعد زيادة لقطاع غزة أنه «لن يكون باستطاعتنا دوماً اضطهاد شعب يكافح من أجل حريته» («يديعوت احرنوت» ٥ شباط ١٩٨٨). ونشر أحد الروائيين المشهورين ـــ أموس أوز ـــ مرافعة ضد سياسة الحكومة في الأراضي المحتلة طالب فيها بـ «المباشرة بمفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية إذا ما اعترفت هذه الأخيرة بدولة إسرائيل» («دافار» ٥ شباط ١٩٨٨).

وفي القدس نظمت مجموعة من المصورين معرضاً عن الانتفاضة، ورفعوا عريضة شددوا فيها بشكل خاص على «الخطر الأخلاقي الذي يهدد إسرائيل نتيجة لسياسة الضرب بالعصي، لأن جنودنا باتوا نتيجة لهذه السياسة مرغمين على القيام بتصرفات لا أخلاقية وغير قانونية ونحن نطالب بوضع حد للسياسة الحالية في الأراضي المحتلة».

وفي جامعة تل أبيب، جمعت تواقيع على نص بعنوان «الميثاق النهائي الحاسم» أعلن فيه الموقعون عن قرارهم بمقاطعة زيارة الضفة والقطاع وبمقاطعة المنتوجات المصنعة في المستعمرات الإسرائيلية الواقعة في الأراضي المحتلة.

وطالت لائحة النداءات. إلا أن التحذير الذي وجهه ١٥٧ عالماً من علماء النفس واطباء الأمراض العقلية أثار الانتباه بشكل خاص، إذ انه لفت الإسرائيليين إلى «مخاطر الاحتلال الدائم الذي يبعث بمجتمعنا الفساد والمرض». كما حذر من «الانعكاسات السيئة لأعمال القمع على الجنود» («هاداشوت» ٥ شباط ١٩٨٨).

ونشر أحد الكتاب وهو ياهو ناتان غويفن رواية لأحد الجنود الشبان كان أمضى فترة خمسة أيام في غزة، قال فيها أنه في الأيام الأربعة الأولى استطاع، وبحيل عدة، التهرب من المشاركة في أعمال الضرب بالمطارق، إلا أنه «في اليوم الخامس، لم يكن أمامي من خيار إلا اللجوء إلى الضرب». وقال جندي آخر «كل ليلة، وأنا مستلق في سريري، تعودني صور ما حدث خلال النهار فأرى نفسي حاملاً مطرقة أضرب بها طفلاً فيصعب عليّ النوم بعدها. إني لا أفهم لماذا يطلبون منا القيام بمثل هذه الأمور». ويقول جندي ثالث «هناك في وحدتنا مهاجرون جدد نادمون لقدومهم إلى إسرائيل» («معاريف» ٥ شباط ١٩٨٨/٢٨ و٢٩ كانون الأول ١٩٨٧).

«إنكم تقتلون روح شبابنا» صرخت السيدة تيما أوفير، من غوفات ــ حاييم ــ براين خلال لقاء لوزير الدفاع مع أمناء سر كيبوتزات حزب العمل، مضيفة «إن ولدي الذي يخدم هناك قال لي إن كل يوم يمر يدفع عدداً أكبر من الجنود إلى التطرف وإلى الالتحاق بالصف اليميني».

وقال أحد الحاضرين «أن شاباً ضرب أحد الصبية بالمطرقة مهشماً له عظامه لن يستطيع بعد ذلك أن يكون هو نفسه».

ورطة الجيش

لقد استأنفت حركة ضباط وجنود «هناك حدود» (ميش غفول) التي نشطت خلال حرب ١٩٨٢ والتي حكم على ١٥٠ من أعضائها بمختلف العقوبات لرفضهم الخدمة في لبنان، نشاطها من جديد. ففي كانون الثاني وقع ١٦٠ ضابطاً وجندياً على نداء بعنوان «فلنوقف أعمال القمع» أعلنوا فيه عن قرارهم بالامتناع عن الخدمة في الضفة وغزة وحكم على بعضهم بالسجن لفترات طويلة وقاسية، وخلال مؤتمر صحافي لهذه الحركة أعلن رقيب من وحدة المظليين «أن السجن ليس بالأمر المرعب، خصوصاً إذا ما قورن بالثمن الذي يدفعه الفلسطينيون وما يتعرض له هؤلاء». وخلال التظاهرتين الحاشدتين اللتين جرتا في ١٣ شباط ١٩٨٨ في حيفا والقدس دعا الخطباء الجنود إلى «عدم إطاعة الأوامر غير الشرعية الصادرة عن قادتهم» في حين ذكر المستشار القانوني للحكومة الجنرال أمنون ستراشوم الجنود بـ «واجب عدم إطاعة أي أمر غير قانوني».

وهكذا، تجد القيادة الإسرائيلية نفسها في مواجهة ثلاث مشاكل رئيسية إذ أثبتت كل الوسائل المعتمدة لردع المتمردين عدم فعاليتها. حتى أن فرض منع التجول وما رافقه من حصار اقتصادي جزئي وحشد للقوات المسلحة واللجوء إلى العنف لإرهاب السكان، لم يعد الهدوء. فلقد اختلفت الوسائل وتنوعت؛ إلا أن الانتفاضة بقيت مستمرة. ويستنتج أحد الصحافيين جويل ماركوس بقوله «لقد استنفدنا كل وسائل العقوبات («هآرتز» ٥ شباط ١٩٨٨).

والمشكلة الثانية التي تواجهها قيادة الأركان هي انعكاسات أعمال القمع على الجنود أنفسهم.

وقد قدمت مصلحة العناية النفسية في الجيش تقريراً حول هذا الموضوع، ظل مضمونه سرياً. في حين أعلن الناطق بإسم الجيش أن «العواقب لم تكن مقلقة»، وهذا ما نفاه المراسل العسكري في صحيفة «دافار» اليومية حين قال «إن الضباط الموجودين في الضفة يعترفون بقلقهم وتخوفهم من عواقب سلوك الجنود» («دافار» ١٠ شباط ١٩٨٨).

واستبعد اقتراح إنشاء وحدات خاصة لمواجهة الاضطرابات في الأراضي المحتلة، لأسباب تتعلق بعدد القوات.

والهم الثالث للقادة العسكريين هو حول برنامج تدريب المجموعات. وكما حصل طيلة الوجود الطويل في لبنان بين عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٥ فإن التمارين والمناورات العسكرية تعرضت جدياً للخلل والتشويش، وألغيت المناورات الشتائية لوحدات عدة من وحدات النخبة. وإذا كنا نجهل، بفعل الرقابة عدد الأشخاص الذين يخدمون اليوم في الأراضي المحتلة، فإننا نعرف، على الأقل، أن هذا العدد ليس بكبير. وقد تلقى كثير

من جنود الاحتياط، الذين كانوا قد انجزوا فترة تدريباتهم ــ وهي بشكل عام لا تتعدى فترة الشهر سنوياً ــ الأمر الشهير «رقم ٨» الداعي إلى التعبئة بدون إشعار ولفترة محدودة.

لم يحدث مطلقاً لإسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ ان واجهت المشكلة الفلسطينية بهذا الشكل الدراماتيكي. غير أن الكتلتين السياسيتين الكبيرتين اللتين تشكلان حكومة الاتحاد الوطني عاجزتان عن تقديم أي فكرة جديدة. فالليكود ما يزال متمسكاً بـ «لا» المتعددة، ويلوح من جديد بمشروعه الذي ولد ميتاً حول الحكم الذاتي الفلسطيني والذي نصت عليه اتفاقيات كامب ديفيد والذي ترفضه كل من مصر والأردن.

وتوضيحاً لأي لبس أعلن شامير بشدة «أن إسرائيل لن تتخلى أبداً عن أي جزء من الضفة وغزة وتطالب بالسيادة على مجموع أراضي فلسطين التاريخية».

ويخشى رئيس الوزراء أيضاً من المبادرة الأميركية، على رغم استنادها إلى إتفاقيات كامب ديفيد، في حين أن أركان حزب العمل، على رغم ترحيبهم وتهليلهم لمآثر وزيرهم للدفاع في الأراضي المحتلة، يحلمون بسلم منفرد مع الأردن. وترفض الكتلتان إعطاء أي دور لـ م. ت. ف.

وفي حال جرى الحفاظ على التوازن النيابي إثر الانتخابات التشريعية التي ستجري في تشرين الثاني المقبل، فإن رابين ــ الذي يهلل حزب الليكود أيضاً لانتصاراته ــ ربما يكون المرشح المشترك لمنصب رئيس الوزراء.

واكثر من ذلك، فإن وزير الدفاع بات يمثل اليوم حزب العمل هذا، ربما يفسر بلا شك اقتراح المستشار النمساوي السابق برونو كرايسكي بطرد الحزب من الاشتراكية الدولية بسبب مسؤوليته عن أعمال القمع ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة.

بالفعل، فإن إسرائيل تفتقر إلى قائد بصير قادر على البوح لشعبه بكل صراحة بكل الحقائق التي يفضل هذا الشعب تجاهلها، وقبل أي شيء البوح لهم بأن القوة لا يمكنها أن تحل النزاع العربي ــ الإسرائيلي، وأن يكون أيضاً قادراً على إدخال البلاد في طريق التسوية التاريخية. وأن إنعدام وجود هكذا قائد اليوم هو مأساة كبيرة.

ترجمة: إيمان شمص

(عن «لوموند ديبلوماتيك» عدد آذار ١٩٨٨)

(نشرت في «السفير» ٢٨/٤/١٩٨٨)



● «... والعمل العربي في هذه المرحلة يحتاج إلى كل خبرة الأمة العربية مع تاريخها الطويل المجيد، ويحتاج إلى حكمتها العمقية، بقدر حاجته إلى ثوريتها وإرادتها على التغيير الحاسم.

إن الوحدة لا يمكن بل لا ينبغي أن تكون فرضاً، فإن الأهداف العظيمة للأمم، يجب أن تتكافأ أساليبها شرفاً مع غاياتها».

جمال عبد الناصر

● واجبنا نحن الزعماء، أن نبث في الشعب روح الأمل والتفاؤل. فإن الشعوب الضعيفة المقهورة لن تقوى ولن تنتصر ما بقيت يائسة متشائمة، ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا إذا ضرب الزعماء الأمثال على انهم هم في المقدمة والطليعة، جرأة وتضحية وإقداماً.

«جواهر لال نهرو»

● ليس ثمة أمة استطاعت أن تنهض من غير أن تطهرها نار العذاب.

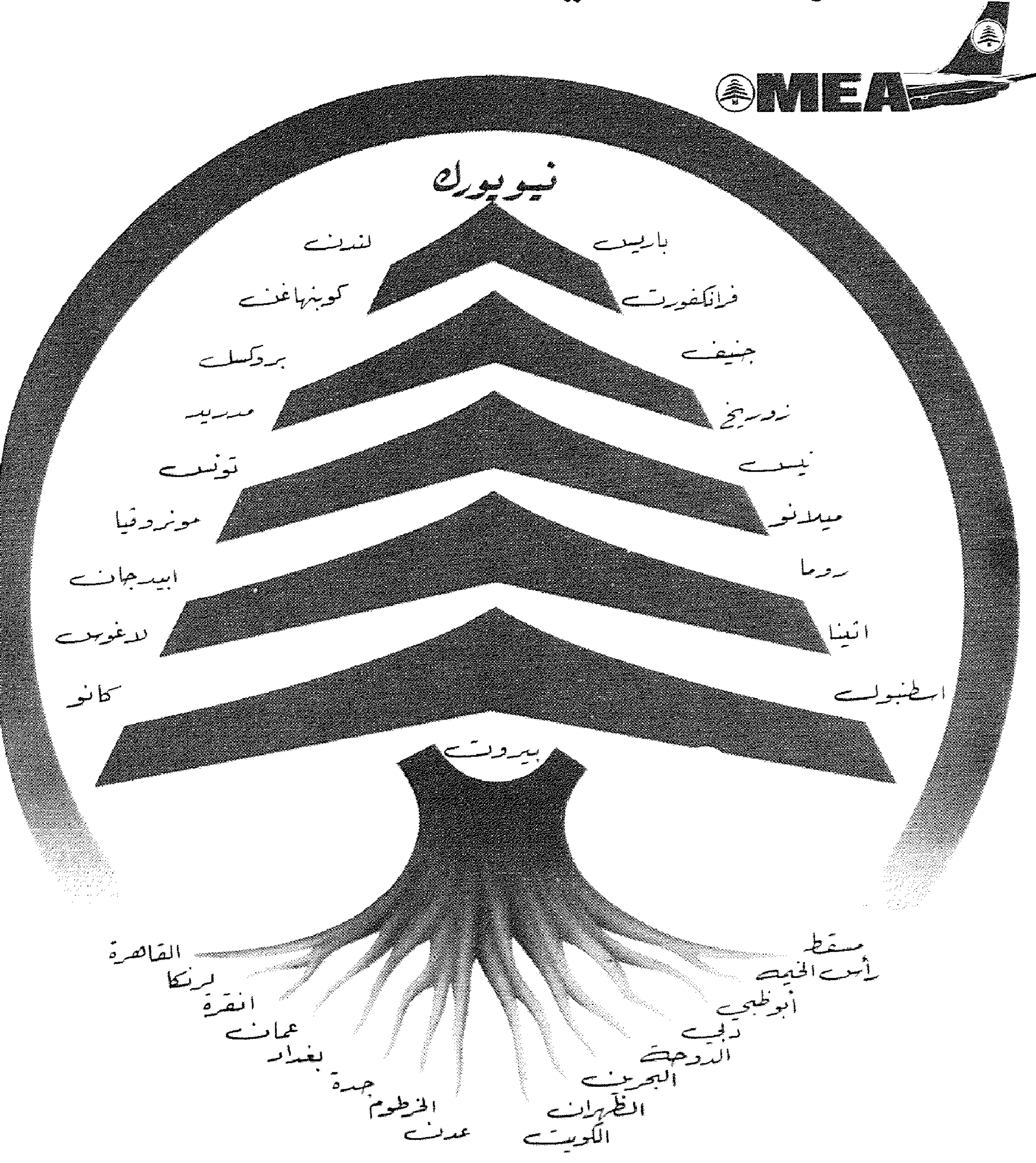
«غاندي»

مَوطنها لبنان

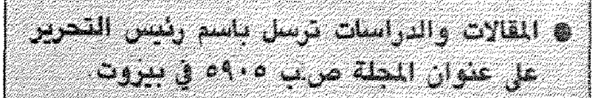
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة

جُذورها راسخة في الشرق الأوسط

وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



■ المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

